اعتراضات ابن عميرة على الزملكانى
فى مباحث علم البيان

عرض ودراسة

إعداد
الدكتور/ يوسف عبد الله الأنصارى
الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد
جامعة أم القرى

[بسم الله الرحمن الرحيم]

مقدمة البحث :

الحمد لله المتفضل على الإنسان بنعمة البيان، والصلاة والسلام على سيد ولد عدنان محمد بن عبدا لله صلى الله عليه وسلم الذى آتاه الله جوامع الكلم وأنزل عليه القرآن تحدياً للإنس والجان، فأخرس ببيانه ألسنة العرب وهم أرباب الفصاحة وفرسان البيان.

وبعد.. فقد عنى علماؤنا السابقون رحمهم الله بالتأليف فى جميع ميادين العلم والمعرفة حتى لم يبق مجال من مجالات العلم إلا وقد ضربوا فيه بسهم وافر يفوق كل تصور.

فقد ظهر فى تراثنا لون من التصنيف لم يكن معهوداً من قبل لدى الأمم السابقة وهو نقد الكتب، حيث ذكرت المصادر المعنية بالكتب والفنون والعلوم، وكتب الطبقات أسماء كتب عديدة اهتمت بهذا اللون من الدراسة لكن أكثرها مفقود لم يصل إلينا مثل كتاب تبيين غلط قدامة بن جعفر فى نقد الشعر للآمدى، وكتاب الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام له أيضا. وغيرهما ومن أهم ماوصل إلينا كتاب الفلك الدائر لابن أبى الحديد فى نقد المثل السائر لابن الاثير، وكتاب التنبيهات على ما فى التبيان من التمويهات لأبى المطرف ابن عميرة الذي رد فيه على كتاب التبيان فى علم البيان للزملكاني، وهذا البحث هو دراسة لاعتراضات ابن عميرة على الزملكاني فى مباحث علم البيان.

ومن بين الأسباب التى دفعتنى إلى وضع هذه الدراسة ما يلى:-

١- تحامل ابن عميرة الشديد على الزملكانى وشدة سخريته به للحط من شأنه ومن منزلته العلمية.

٢- أن ابن عـميـرة لم يـكن صـاحب حق فى ردوه على الزملكانى بل كـان يعتمد على المغالطة والتمويه.

٣- أن ابن عـميـرة استطاع دون أن يكون ذا قدم راسخة فى علوم البلاغة أن يضرب بمعول من حديد صرح البلاغة العربية من خلال ردوده على الزملكانى.

ويتكون البحث من مقدمة وتمهيد يحتوى على تعريف بالزملكانى وابن عميرة.

ومن خمسة مباحث هى كالآتى :-

المبحث الأول : فى الكناية.

المبحث الثانى: فى الاستعارة.

المبحث الثالث: فى التمثيل «الاستعارة التمثيلية».

المبحث الرابع : فى المجاز العقلى.

المبحث الخامس: فى التشبيه .

وأضرع إلى الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، وأن ينفع به، وأن يعـصـمنا من زلات الفكر وزلات القلم «ربنا لاتؤاخـذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولاتحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا » وأصلى وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والحمد لله رب العالمين..

التمهيد :

أولا: ترجمة الزملكانى:

هو أبو المكارم كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف الأنصارى السماكى الدمشقى الشافعى الزملكانى نسبة إلى زملكان قرية بغوطة دمشق.

كان فاضلاً أديباً خبيراً بالمعانى والبيان والأدب، عالماً مبرزاً فى عدة فنون. ولى قضاء صرخد، ودرس ببعلبك، وتوفى بدمشق فى المحرم سنة ٦٥١هـ(١).

ولايعرف أكثر من هذا عن حياته ودراسته، ولم يشر الزملكانى نفسه إلى أساتذته إلا إلى أبى عمرو بن الحاجب(٢).

مؤلفاته :

ذكرت المصادر كتباً عديدة له منها:

١- المنهج المفيد فى أحكام التوحيد.

٢- نهاية التأميل فى أسرار التنزيل فى التفسير.

٣- شرح المفصل للزمخشرى فى النحو سماه المفضل على المفصل.

٤- عجالة الراكب فى ذكر أشراف المناقب.

٥- رسالة فى الخصائص النبوية.

٦- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن.

---

(١) انظر بغية الوعاة ١/١١٩ ومعجم المؤلفين ٦/٢٠٩ ومقدمة التبيان ص١٠-١٢.

(٢) انظر مقدمة التبيان ص ١٢.

٧- المجيد فى اعجاز القرآن المجيد.

٨- التبيان فى علم البيان المطلع على إعجاز القرآن[١].

لعل أشهر كتب الزملكانى هو التبيان، وقد ألفه لما اطلع على كتاب دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجانى فرآه واسع الخطو ، فقيد التبويب، فأراد أن يهذبه ويجمع مسائله ليكون قريب التناول، سهل التداول، وفى هذا الصدد يقول وهو يتحدث عن علم البيان «ومن أجمعها كتاب دلائل الاعجاز للإمام العالم الحبر النحرير، علم المحققين عبد القاهر الجرجانى رحمه الله، فإنه جمع فأوعى وقال فأوعى، فلقد فك قيد الغرائب بالتقييد، وهدم سور المعضلات بالتسوير المشيد حتى عاد أسهل من النفس وأصحب للفهم من ضوء الشهاب القبس فى الغلس فجزاه الله خير الجزاء، وجعل نصيبه من أوفر الأجزاء، غير أنه واسع الخطو كثيراً مايكرر الضبط، فقيد للتبويب، طريد من الترتيب، يمل الناظر ويعشى الناظر وقد سهل الله تعالى جمع مقاصده وقواعده، وضبط جوامحه وطوارده، مع فرائد سمح بها الخاطر، وزوائد نقلت من الكتب والدفاتر[٢].

وقد رتب الزملكانى كتابه التبيان على سوابق ومقاصد ولواحق، وجعل من السوابق ثلاث مقدمات: أولها فى فضل علم البيان، والثانية فى حصر مواقع الغلط فى اللفظ، والثالثة فى طريق تحصيله.

والمقاصد ثلاثة أركان، الركن الأول: فى الدلالات الإفرادية وهو فى الكلام على الحقيقة والمجاز وأقسامه من كناية واستعارة وتمثيل وغيرها، وفى الفرق بين الإثبات بالاسم والفعل، والمعرفة والنكرة، وفى مفردات شذت عن الضوابط.

---

(١) انظر معجم المؤلفين ٦/٢٠٩ ومقدمة التبيان ص١٢ ومابعدها.

(٢) التبيان ص ٣٠.

والركن الثانى: فى مراعاة أحوال التأليف ويشتمل على اثنى عشر قسماً.
والركن الثالث : فى معرفة أحوال اللفظ وأسماء أصنافه فى علم البديع.

أما اللواحق فتكلم فيها عن بيان الجهة التى تحصل بها البلاغة والإعجاز فى القرآن، ذكر فيه خمسة أراء للإعجاز، فند أربعة منها، وتمسك بواحد منها رآه الصواب الذى لايأتيه الباطل، وهو أن يكون الإعجاز راجعاً إلى توخى معانى النحو وأحكامه فى النظم.

وكتاب التبيان وإن كان فى جملته تلخيصاً وتهذيباً للدلائل فإنه يمتاز عنه بالتبويب والتنسيق ومع ذلك فإنه لم يقف عند الدلائل بل استفاد أيضاً من أسرار البلاغة لعبد القاهرة، واطلع على كتب بلاغية أخرى أفاد منها فى بحث فنون البديع مثل كتاب نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز للرازى، ومفتاح العلوم للسكاكى، والبديع فى نقد الشعر لابن منقذ والمثل السائر لابن الأثير وغيرها [١].

وقد أفاد العلوى من كتاب التبيان فكان أحد المصادر الأربعة التى اعتمد عليهافى تأليف كتابه الطراز، كما تأثر بهاء الدين السبكى بالتبيان فكان أحد الكتب التى رجع إليها حين ألف كتابه عروس الأفراح [٢].

ومع أن الزملكانى فى خاتمة كتابه قد ابتهل الله الكريم أن يمنحه القبول بفضله وأن يعصمه من التحامل حتى لايقذفه جاهل بجهله، أو متجاهل لجمود فضله [٣] فقد قيض الله له ابن عميرة الذى كان شديد القسوة عليه، شديد النكاية به.

---

(١) انظر : التبيان مقدمة المحقق ص ١٥-١٦.

(٢) عروس الأفراح ١/ ٣١.

(٣) التبيان ص ٢٠٠.

ثانياً: ترجمة : ابن عميرة

نسبه ومولده :

هو أبو المطرف أحمد بن عبدا لله بن محمد بن الحسين المخزومى البلنسى الشقرى. كان مولده فى مدينة بلنسيه بجزائر شقر فى شهر رمضان المعظم سنة ٥٨٠ للهجرة ، وقيل سنة ٥٨٢، وتوفى بتونس ليلة الجمعة عشرين من ذى الحجة المعظم سنة ٦٥٨[١].

حياته وتعليمه :

لم تذكر لنا المصادر التى بين أيدينا تفصيلاً وافياً عن المراحل الأولى من حياة أبى المطرف الذى أصبح فيما بعد من أشهر علماء الأندلس وكتابها البارزين، انتهت إليه زعامة العلم فى عصره فكان لذلك قبلة لأنظار الطلاب يرحلون إليه من كل مكان.

بيد أننا نستشف مما بقى من أخباره أنه نشأ محباً للعلم منذ نعومة أظفاره، مجتهداً فى تحصيله.

وبدهى أن أبا المطرف قد تلقى أولاً تعليمه فى مسقط رأسه بلنسية على أيدى علمائها لعل من أبرزهم أبا الربيع سليمان بن موسى بن سالم الحميدى الكلاعى.

ومن أعلام فقهاء بلنسية الذى أخذ أبو المطرف عنهم أبو عامر نذير ابن وهب بن لب الفهرى، وغيره.

---

(١) انظر نفح الطيب ١/ ٣١٥ والإحاطة فى أخبار غرناطة ١/ ١٧٣ وبغية الوعاة ١/ ٣١٩ ومعجم المؤلفين ١/ ٢٩٩ وتاريخ آداب العرب للرافعى ٣/ ٣٢٢؛ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٥/ ٣٦٥.

وكان أبو المطرف بن عميرة شديد العناية بشأن الرواية فأكثر من سماع الحديث وأخذه عن مشايخ أهله، وتفنن فى العلوم ونظر فى المعقولات وأصول الفقه، وأتقن النحو، ومال إلى الأدب فبرع فيه براعة عد فيها من مجيدى النظم، وأجاد الكتابة حتى قيل عنه إنه ثانى بديع الزمان، وفارسها الذى لايجارى ، وصاحب عينها الذى لايبارى.

وقد حظى ابن عميرة بمكانة مرموقة لدى ولاة الأمر وتقلد مناصب عالية فى بلده وفى تونس، فقد تولى الكتاب فى بلنسية، وعينه أمير المؤمنين الرشيد الموحدى صاحب مراكش كاتباً ثم قلده قضاء هيلانة، ثم قضاء سلا، وفى عهد السعيد تولى قضاء مكناسة، ثم لما قدم تونس تقلد منصب القضاء بالأربس من افريقية، ثم بمدينة قابس، بعد ذلك استدعاه أمير المؤمنين المستنصر بالله الحفصى وأحضره مجالس أنسه، وداخله مداخلة شديدة حتى تغلب على أكثر أمره[١].

رحلاته :

ليس فى كتب التراجم تفصيل شامل لرحلاته فى طلب العلم، غير أن صاحب نفح الطيب يذكر أنه رحل إلى المشرق وأجازه جماعة من علمائه دون ذكر لأسمائهم[٢]، منهم أبو الفتوح نصر بن أبى الفرج كما فى الإحاطة فى أخبار غرناطة[٣]. ولاندرى أكانت هذه الرحلة فى بداية طلبه للعلم أم

---

(١) انظر نفح الطيب ١/٣١٤ ومابعدها والإحاطة فى أخبار غرناطة تحقيق محمد عبد الله عنان ١/١٧٤-١٧٦.

(٢) نفح الطيب ١/٣١٤.

(٣) الإحاطة ١/١٧٥.

كانت لأداء فريضة الحج وزيارة مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن اشتد عوده ونبه ذكره وذاع صيته، وأصبح من علماء الأندلس النابهين الذين يقصدهم طلاب العلم لينهلوا ويرتووا من ينابيعهم المتدفقة بالعلم.

مهما يكن من أمر فقد رحل أبو المطرف إلى المشرق، ولعله فى هذه الرحلة مر بالقاهرة والتقى بعلمائها الأفذاذ الذين يتصدرون حلقات الدرس فأخذ عنهم علوم العربية وعلوم الفقه وغير ذلك.

ويبدو أنه فعل ذلك عندما زار الشام حيث جلس إلى علمائه، واستمع منهم وأعجب بهم وأخذ عنهم ، وأجازه بعضهم فى علوم العربية كالنحو والأدب، وعلوم الحديث والفقه.

وهكذا أخذ ينتقل من مكان لآخر إلى أن وصل إلى مكة شرفها الله، فأدى مناسك العمرة والحج، والتقى بعلمائها وفقائها وسمع منهم وأخذ عنهم صنوف المعرفة، «ثم عاد إلى بلده ليتولى القضاء والتدريس فى شاطبة ثم فى ميورقة حتى سنة ٦٢٧، إذ حضر تسليم الجزيرة لقوات خايمة الأول ملك أرغون، وكتب كتاباً فى كائنة ميورقة وتغلب الروم عليها، وقد غادر بلنسية بعد سقوطها سنة ٦٣٦، وتوجه إلى المغرب حيث كتب للرشيد الموحدى، وتولى القضاء فى بضع نواح، ثم انتقل إلى أفريقية حيث كتب للمستنصر بالله الحفصى إلى أن توفى سنة ٦٥٨»[١].

---

(١) الحلة السيراء لابن الأبار تحقيق حسين مؤنس مقدمة المحقق ص ٣١ ومابعدها وراجع نفح الطيب ١/ ٣١٥ ومابعدها.

ثقافة :

كان أبو المطرف واسع الثقافة متبحراً فى الحديث والفقه والأصول والنحو والأدب والتاريخ ، عالماً بالفلسفة والمعقولات من خلال اطلاعه على تلخيصات ابن رشد ومؤلفات ابن سينا والغزالى والسهروردى.

وإن آثاره الموجودة من مؤلفاته ورسائله وأشعاره لتدل دلالة واضحة على مكانته العلمية وتنوع ثقافته ومشاركته فى جميع صنوف العلم والمعرفة. ومما يدل على رسوخ قدمه فى علم النحو قوله فى رسالة بعث بها إلى الشيخ أبى جعفر بن أمية حين حل الرزء ببلنسية بدأها بأبيات شعرية مطلعها:

ألا أيها القلب المصرح بالوجد أما لك من بادى الصبابة من بد

.... ثم يقول «.. من ينصفنا من الزمان الظالم؟ الله بما يلقى الفؤاد عالم، بالله أى نحو تنحو، ومسطور تثبت وتمحو، وقد حذف الأصلى والزائد، وذهبت الصلة والعائد، وذهبت الصلة والعائد، وباب التعجب طال، وحال البائس لا تخشى الانتقال، وذهبت علامة الرفع، وفقدت سلامة الجمع، والمعتل أعدى الصحيح، والمثلث أردى الفصيح، وامتنعت العجمة من الصرف، وأمنت زيادتها من الحذف..»[1].

نلاحظ فى هذا النص كثرة المصطلحات النحوية والصرفية كالأصلى والزائد، والصلة والعائد، والتعجب، والمعتل والصحيح، والممنوع من الصرف، والفصيح وغير ذلك من المصطلحات التى نجدها تتردد فى كتب النجاة.

---

(١) نفح الطيب ١/ ٣٠٥ - ٣٠٧.

ومما يدل على اقتداره وتمكنه من علم النحو تفصيله الدقيق- فى كتابه التنبيهات - لكثير من الأدوات التى تحدث عنها النحاة مثل كان وإن، وإلا، ولاولن داعماً كلامه ببعض الشواهد الشعرية التى استشهد بها النحاة.

أما الأدب فقد تمكن منه وضرب فيه بسهم وافر ، فقد رزقه الله موهبة أدبية فذة فكان من المجيدين لنظم الشعر وفن الكتابة، ولعل أصدق دليل على ذلك رسائله وأشعاره، فهى دون أدنى ريب دالة على براعته فى عالمى الشعر والكتابة.

وفى كتاب التنبيهات نصوص كثيرة تدل على سعة اطلاعه على كتب الأدب كالحماسة لأبى تمام ومقامات الحريرى، ،كتاب البديع لابن المعتز، والعمدة لابن رشيق ، ونقد الشعر لقدامة وكتب الأمثال وغير ذلك من كتب الأدب.

من ذلك قوله «ومن جنس مايقع فى التركيب من تشاكل الألفاظ قول الحريرى «فأسعدوا جدى وأجدوا سعدي» وللعماد الأصبهانى ولوع بهذا الفن ويأتى منه بالعالى والساقط»(١).

وقوله «فوجدت أبا زيد السروجى يتقلب فى قوالب الانتساب، ويخبط فى أساليب الاكتساب»(٢).

ومما يدل على اتقانه للأدب استشهاده بأبيات شعرية من ديوان الحماسة أو من دواوين الشعراء على مختلف العصور.

---

(١) التنبيهات ص ١١٠.

(٢) السابق ص ١١١ وراجع ص ١٠٨.

من ذلك قوله «وما كان يجيب به أبو العباس لو أن هذا السائل رماه ببيت الحماسة إنى لمهد من ثنائى فقاصد»(١).

وقوله «وقد غلا أبو الطيب فى مدح نفسه وتفخيم قوله فيما أنشد سيف الدولة:

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفى
أنا الثريا وذان الشيب والهرم(٢)

ومن دلائل اقتداره بالأدب استشهاده بالأمثال الشعرية كقولهم «رأى الشيخ خير من مشهد الغلام»(٣).

وقولهم «أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب»(٤).

ومن العلوم التى برع فيها أبو المطرف بين عميرة وأجادها التاريخ والأخبار، يتجلى ذلك بوضوح فى معرفته وإلمامه بالأحداث التاريخية منذ فجر الاسلام إلى العصر الذى عاش فيه من ذلك قوله «ومنه قول وهب بن عمير يوم بدر: يامعشر قريش رأيت الولايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة إلا السيوف»(٥).

---

(١) السابق ص ٩٢ وهذا صدر بيت لتأبط شراً وعجزه : به لابن عم الصدق شمس بن مالك.

(٢) السابق ص ١٢١ وأنظر ص ١١٩، ص ١٢٣.

(٣) السابق ص ١٢٣.

(٤) السابق ص ١١٣.

(٥) السابق ص ١١٩ وراجع ص ١٢١، ص ١٢٣.

وقوله «ومثال الاستمالة والاستعطاف قول ابنة النضر».

ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ المحنق

وحسبك أن إمام المتقين لما سمع الشعر الذى فيه هذا البيت قال: لو بلغنى شعرها قبل أن أقتله لما قتلته[١].

وقوله «وقد كان السفاح أمن طائفة من بنى أمية وأقعدهم معه فى مجلسه وأقبل عليهم بوجهه حتى دخل عليه من أنشده الشعر المثير كامن حقده، النافخ فى جمر غضبه، فما كان بأسرع من أن شد خوا ضرباً بالعمد وأخرجوا جراً بالأرجل».

أما الحديث فتذكر كتب التراجم أنه كان راوية مكثراً من سماع الحديث، والقارئ لكتاب التنبيهات يدهشه استحضار أبى المطرف للأحاديث النبوية من ذلك قوله «وكذلك قوله عليه السلام» «إنما الماء من الماء»[٢] وقوله فى الحديث «إنما الربا فى النسيئة»، « إنما الماء من الماء، إنما الرضاعة من المجاعة»[٣] ستحرصون على الأمارة فنعمت المرضع وبئست الفاطمة[٤] وقوله صلى الله عليه وسلم «ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب»[٥].

---

(١) السابق ص ١١٨ وراجع ص ١٢٢ فيها إشارة إلى قصة الثلاثة الذين خلفوا.

(٢) السابق ص ٨٨.

(٣) السابق ص ٩٠.

(٤) السابق ص ١١٠.

(٥) السابق ص ١١٥ وراجع ص ١٢٤.

فاستشهاد أبى المطرف بهذه الأحاديث الكثيرة يدل على غزارة علمه، وعلى أنه كان من المبرزين في علم الحديث.

ومما يؤكد تنوع ثقافة أبى المطرف ابن عميرة إتقانه لعلم الفقه والأصول، فقد برز فيهما وأجادهما إجادة مكنته أن يتقلد القضاء سواء في الأندلس أو فى أفريقية.

ولايخفى على القارئ لكتاب التنبيهات مافيه من نصوص- وهى على قلتها - الدالة على تمكنه من الفقه من ذلك قوله « أو إلى شبيه ليحصل فيه على ماتراه فى كثير من تفاريع الفقه، وفى أقيسة النحو ، أما نقله إلى الكلى فكما نقل الفقيه حكم الأربعة الربوية إلى الكيل أو الطعام مثلاً، ليدخل تحتها جزئيات المكيلات أو المطعومات»(١).

وقوله «كما يقول الفقيه النبيذ محرم، و«العارية مضمونة»(٢).

ومن العلوم التى تبحر فيها أبو المطرف وأجادها علم الفلسفة وذلك من خلال تلخيصات ابن رشد ومؤلفات ابن سينا والغزالى والسهروردى على يد شيخه الشلوبين وإن آثاره الموجوده ومنها كتاب التنبيهات لتدل على تمكنه من الفلسفة والعلوم العقلية وتضلعه فيها.

وفى هذا الكتاب نصوص عديدة «تدلنا على اقتضاب مؤلفها من عبارات ابن سينا وابن رشد فى كتابى «الخطابة» و «الشعر» لأرسطو، فمن ذلك قوله «ومن أنواع الاستعارة أن يجعل للأشياء غير المتنفسة أفعال وأقوال يحاكى بها ذوات الأنفس»(٣).

---

(١) السابق ص ١٢٤.

(٢) السابق ١٣٥.

(٣) السابق ص ٨٥.

وهذا لفظ ابن سينا في «الخطابة» إذ يقول « ومن أنواع الاستعارات اللفظية أن تجعل أفعال الأشياء الغير المتنفسة كأفعال ذوات الأنفس»[١].

ويستعمل ابن عميرة مصطلح التغيير فى مواضع مختلفة منها تعليقه على بيت حسان:

بنى المجد بيتاً فاستقرت عماده علينا وأعيا الناس أن يتحولا

يقول «وفيه من التغيير البديع أن ينسب الأمر إلى صفة الفاعل دون الفاعل، فنسب البيت إلى المجد لا إلى الرجل، مثل مايقال: الشيخوخة تفعل الخيرات بدل قول القائل: المشايخ يفعلونها[٢] وفى تلخيص الخطابة لابن رشد «وهذا التغيير هو مثل قول القائل: إن الشيخوخة هى فاعلة الخيرات بدلاً من قوله: إن الشيخ هو فاعل الخيرات»[٣].

ومن ذلك قول ابن عميرة «ومن باب الإغضاب الذى جرد الحسام واتاح الحمام قول القائل وقد أحفظه بين يدى الخليفة المروانى يهودى كان قد تخطاه وحول إليه شق رضاه:

ياملكا طاعته عصمة وحبه مفترض واجب
إن الذى شرفت من أجله يزعم هذا أنه كاذب[٤]

وقد ذكر هذه القصة ابن رشد فى تلخيص الشعر حيث يقول «فإن القائل من الفقهاء لعبد الرحمن الناصر بمحضر الملأ من أهل قرطبة يخرضه على حسداى اليهودى»:

---

(١) الخطابة ص ٢٣٠ نقلاً عن التنهبيات مقدمة المحثث ص ٢٦.
(٢) التنبيهات ص ٥٦- ٥٧.
(٣) تلخيص الخطابة ص ٦٠٥ نقلاً عن مقدمة المحقق ص ٢٧.
(٤) التنبيهات ص ١١٧.

إن الذى شرفت من أجلـه يزعم هـذا أنـه كـاذب

لم يحتج فى إغضاب الناصر عليه إلى أكثر من هذا القول، وإن كان لم يخرج عن سمته وهيئته لكون هذا القول حقا»[١].

ومن أبرز الاصطلاحات التى يتردد «ذكرها فى التنبيهات علاوة على ماذكر، المحاكاة والتخييل، والتغيير والتبديل أو الابدال، والضمير أو الإضمار وغيرها، وهى مأخوذة من كتابى الخطابة والشعر»[٢].

ومن مظاهر تأثره بالفكر اليونانى قوله:

وقالوا أتلهو والشباب قد انقضى وعمرك قد ولى ولم يبق طائل
فقلت "أصيل العمر" ماقد بلغته وأطيب أوقات الزمان الأصائل

فأصيل العمر أو «مساء العمر» بمعنى الشيخوخة مثال وارد فى فن الشعر لأرسطو»[٣].

ومن ذلك قوله:

أرادونى على لبس الجديـد ومالي والجديد من البرود
أيذوي العود والإغصان خضر مخالفة لعمرك للوجـود

وذكر محقق كتاب التنبيهات الاستاذ محمد بن شريفة أن ابن عميرة كان يدرس كتاب أقليدس، ثم ساق أمثلة من شعره تدل على ذلك، منها قوله مخاطباً من كان يقرأ عليه كتاب أقليدس:

---

(١) فن الشعر ترجمة عبد الرحمن بدوى ص ٢٣٣.
(٢) التنبيهات مقدمة المحقق ص ٢٩.
(٣) فن الشعر ص ١٩٢ وراجع التنبيهات ص ٣٠.

احرص على قربك من منزل للعز من حل به يعتـز
الخط فى دائـرة طولـــه بقدر مايدنو من المركز

وقال له كذلك:

أشكال دهرك أعصاها مقايسة درى المهندس منها أنها حرجة
ومن زواياه لم يسمع بقائمـة فكيف يطلبه خلق بمنفرجـة[1]

أما اقتداره من النقد الأدبى وتفوقه فيه فراجع إلى طبيعة تكوينه ونبوغه فى الكتابة والشعر. وفي التنبيهات لمحات نقدية صائبة تدل على تمكنه من النقد منها تعليقه على الشعر الذي قيل في رثاء البرامكة.

سألت الندى والجود مالي أراكما تبدلتمـا ذلا بعـــز مؤبـــد
وما بال ركن المجد أمس مهدمـا فقالاً: أصبنا بابن يحي محمـد
فقلت فهلا متمـا بعـد موتـه فقد كنتما عبديه فى كل مشهد
فقالا أقمنا كـي نعـزى بفقـده مسافة يوم ثم نتلوه فى غـــد

«... وفيه بعض اعتراض على الشاعر حين اشتد نكيره على الندى والوجود أن لم يموتا بعد هذا الإنسان وقد كانا عبديه، كأن العبيد قد عهد منهم أن لايتخلفوا بالموت عن سادتهم، وأخور من هذا على غمز النقد أنهما أقاما بعده للتغزية ولو قال بدل كي نغرى بفقده، كى نندبه أو ننوح عليه كان أولى، ثم جعل الندى والجود أمرين متغايرين يخاطبهما ويسمع جوابهما طريف . أيضا فاللفظتان أقرب إلى الترادف منهما إلى التباين»[2].

---

(١) التنبيهات ص ٢٦ - ٣١ مقدمة المحقق.

(٢) التنبيهات ص ٥٧-٥٨.

شيوخـــه:

أخذ أبو المطرف بن عميرة العلم عن علماء عصره النابهين، فقد روى الحديث والأخبار عن شيخه أبى الخطاب أحمد بن محمد بن واجب القيسي، ودرس التاريخ والأخبار على شيخه أبي سليمان داود بن سليمان بن حوط الله الأنصاري، وأخذ الفقه والحديث عن شيخه أبي عبد الله محمد بن أيوب بن نوح السرقطي، وأخذ النحو والأدب وعلوم العربية عن شيخه الأستاذ أبي علي الإشبيلي المعروف بالشلوبين، كما تتلمذ عليه فى الفلسفة لأن أبا علي كان من تلاميذ ابن رشد.

«وإلى أبي علي هذا انتهت إمامه العربية بالمشرق والمغرب، فكان آخر أئمة هذا الشأن، وكان مع ذلك نقاداً للشعر بصيراً بمعانيه، وقد درس نحو ستين سنة، حتى لم يتأدب بالأندلس أحد فى وقته إلا وأسند إليه مباشرة أو بواسطة»[١].

وأخذ النحو والأدب والحديث والأخبار عن شيخه أبى الربيع سليمان بن موسى بن سالم ابن حسان الحميدى الكلاعى أكبر علماء بلنسية فى عصره[٢].

أماشيوخه فى المشرق فقد أجاز له من أهل المشرق أبو الفتوح نصر ابن الفرج وغيره[٣].

---

(١) بغية الوعاة ٢/٢٤٢ ومابعدها وانظر تاريخ آداب العرب للرافعى ٣/٣٢٢.

(٢) انظر نفح الطيب ١/٣١٤ والاحاطة فى أخبار غرناطة ١/١٧٤ ومابعدها.

(٣) انظر الاحاطة ١/١٧٥.

تلامذته:

أخذ العلم عن أبى المطرف بن عميرة خلق كثير منهم ابنه القاسم، وأبو عبد الله محمد ابن الآبار القضاعى[١] ، وحازم القرطاجنى[٢] ، وأبو بكر بن خطاب، وأبو إسحاق البلقينى الحفيد، والحسن بن طاهر الشقوري، وأبو عبدا لله البري، وأبو جعفر بن الزبير[٣]، وابن شقيف، وابن ربيع، وغيرهم مما يطول ذكره[٤].

ثناء العلماء عليه :

احتل أبو المطرف بن عميرة فى فنون العلم والمعرفة مكانة علمية مرموقة وقد أثنى عليه العلماء ثناء بالغاً، يقول عنه المقري «كان أبو المطرف بن عميرة كما قال فيه بعض علماء المغرب: قدوة البلغاء، وعمدة العلماء، وصدر الجلة الفضلاء... ونكتة البلاغة التى قد أحرزها وأودعها وشمسها التي أخفت ثواقب كواكبها حين أبدعها..»[٥].

---

(١) الحلة السيراء مقدمة المحقق ص ٣١.

(٢) انظر منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجنى تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة مقدمة المحقق ث ٤٧ ، ٦٤ .

(٣) ملاك التأ،يل لابن الزبير الغرناطى تحقيق سعيد الفلاح مقدمة المحقق ص ٧٢.

(٤) الإحاطة فى أخبار غرناطة ١/ ١٧٥.

(٥) نفح الطيب ١/ ٣١٣.

«قال عنه ابن الأبار فى تحفه القادم: فائدة هذه المائة، والواحد يفي بالفئة الذي اعترف باتحاده الجميع، واتصف بالابداع فماذا يتصف به البديع، ومعاذ الله أن أحابيه بالتقديم لما له من حق التعليم، كيف وسبقه الأشهر، ونطقه الياقوت والجوهر... (١).

ويقول عنه ابن سعيد «هو الآن عظيم الأندلس فى الكتابة وفى فنون العلم» (٢).

ويقول عنه ابن الخطيب «تفنن فى العلوم، ونظر فى العقليات وأصول الفقه، ومال إلى الأدب فبرع فيه براعة عد فيها من كبار مجيدى النظم، وأما الكتابة فهو علمها المشهور، وواحدها الذي عجزت عن ثانية الدهور، ولاسيما فى مخاطبة الأخوان، هنالك استولى على أمد الإحسان،.. وعلى الجملة فذات أبي المطرف فيما ينزع إليه ليست من ذوات الأمثال، فقد كان نسيج وحده إدراكاً وتفنناً، بصيراً بالعلوم، محدثاً، راوية ، ثبتاً سجراً فى التاريخ والأخبار، ريان ، مضطلعاً بالأصلين، قائماً على العربية واللغة، كلامه كثير الحلاوة والطلاوة، جم العيون، غزيز المعاني والمحاسن...» (٣).

أما حازم القرطاجنى فقد وصف شيخه قائلاً: «وهناك الكاتب الأبرع أبو المطرف بن عميرة نسيج وحده فى البلاغة» (٤).

ويقول عنه السيوطي «كان إماماً عالماً بالفقه، مالكياً، عالماً بالمعقولات والنحو واللغة والأدب والطب، متبحراً فى التاريخ والاخبار،

---

(١) السابق ١/٣١٥.

(٢) المغرب فى حلى المغرب ٢/٣٦٣.

(٣) الإحاطة ١/١٧٤.

(٤) منهاج البلغاء ص ٢٧٢.

بصيراً بالحديث راوية مكثراً ، ثبتاً حجة، غزير المعاني، ناظماً ناثراً، ثاني بديع الزمان»[١].

ويقول عنه مصطفى الرافعى «أبو المطرف المخزومي البلنسي وهو خزانة من خزائن العلم، كان إماماً عالماً بالمعقولات والنحو واللغة والأدب..»[٢].

مؤلفاته:

لقد كان لتنوع ثقافة أبي المطرف بن عميرة أثر واضح فيما تركه من مصنفات علمية عديدة منها:

١- المعالم فى أصول الفقه:

وهو كتاب تعقب فيه الإمام فخر الدين الرازى المعروف بابن خطيب الري وقد رد على هذا الكتاب أبو إسحاق ابراهيم بن أحمد الجزري الأنصاري وهو عالم معارض لابن عميرة في كتاب سماه «رفع المظالم عن كتاب المعالم» وهذا الرد للأسف مفقود لم يصل إلينا، غير أن ابن رشيد السبتى الرحالة اطلع عليه وقال عنه «وهذا الكتاب تكلم فيه مع أبي المطرف ابن عميرة فى المسائل التي تكلم فيها أبو المطرف رحمه الله على كتاب المعالم للفخر ابن الخطب، فأخذ الشيخ أبو إسحاق يسلك بينهما طريق الإنصاف، وجعل يقول قال المصنف- يعنى الفخر - وقال المتعسف- يعني أبا المطرف، وقال المنصف -يعني نفسه»[٣].

---

(١) بغية الوعاة ١/٣١٩.

(٢) تاريخ آداب العرب ٣/٣٢٢.

(٣) رحلة ابن رشيد ٦/٦٢ مخطوط الاسكوريال رقم ١٧٣٧ نقلاً عن مقدمة المحقق لكتاب التنبيهات ص ٣٧.

٢- كتاب فى فاجعة المرية وتغلب الروم عليها:
ذكره عمر كحالة فى معجم المؤلفين [١].

٣- كتاب في كائنة ميورقة وتغلب الروم عليها، نحا في الخبر عنها منحى الإمام الأصبهاني فى الفتح القدسي، وقد نقل المقري صاحب نفح الطيب نصوصاً من هذا الكتاب[٢].

٤- التنبيهات على ما في التبيان من التمويهات[٣].

واضح من تسمية الكتاب أنه كتاب ألفه للرد على كتاب الزملكاني التبيان فى علم البيان المطلع على إعجاز القرآن[٤]، الذي لخص فيه كتاب دلائل الاعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني، فأعاد ترتيب مسائله وتبويبه وتهذيبه كما أفصح عن ذلك في مقدمة كتابه[٥].

ولما أطلع أبو اسحاق ابراهيم الجرزي الأنصاري على كتاب التنبيهات، ورأي فيه تحامل ابن عميرة على صاحب التبيان وهجومه الشديد عليه، ألف كتاباً رد فيه على ابن عميرة، وانتصر فيه للزملكاني سماه التنبيه على مازخرف من التمويه فى علم البيان المطلع على إعجاز القرآن، لكن هذا الكتاب مفقود عدت عليه عوادى الزمان.

---

(١) معجم المؤلفين ١/٢٩٩.

(٢) نفح الطيب ٤/٤٦٩-٤٧١.

(٣) هو هذا الكتاب الذي نقوم فى هذا البحث بدراسة اعتراضات ابن عميرة على الزملكانى فى مسائل علم البيان راجين من الله العون والتوفيق .

(٤) انظر كشف الظنون ١/٣٤١ وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان ٥/٣٦٥.

(٥) التبيان في علم البيان للزملكاني تحقق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي ص٣٠.

والمنهج الذى سلكه ابن عميرة في ردوده على الزملكاني ذكر كلام صاحب التبيان أولاً ثم يعقبه بالمناقشة والاعتراض، والقارئ لكتاب التنبيهات يلاحظ أن اعتراضات ابن عميرة كانت منصبة على أساسيات البحث البلاغى وعلى بعض الجزئيات والأمثلة والشواهد التى يوردها مؤلف التبيان، ونراه فى أكثر رودوده يسخر من المؤلف سخرية لاذعة من ذلك قوله« والسؤال الذى أورده فى هذا الفصل لايتشبت بذهن محصل، وجوابه عنه صحيح، لكن ذكره إياه واشتغاله به إضاعة للزمان وشروع فى ضرب من الهذيان»(١).

وقوله «وقد قدمنا فى هذا مايظهر الفرق ويغني عن هذا النهي، وأما مايقوله في الموازنة بينهما فمذهب يفرح به صبيان الكتاب، ويرتفع عنه أولو الألباب»(٢).

وقوله «فهذه أشياء لاينبغي أن يقطع بها عمر، أو بفرح بها إلا غر»(٣).

وقوله « ولعل حب السجع بالعلم والقلم أنساه ذلك ، وهذه كلها من أضغاث القول، ولا أدري ما يفيد في البلاغة هذا البحث الذي عليه صدأ التكلف وغبار القصور»(٤) ، وقوله «ثم أنشد بيت استنباح الأضياف، وجمح به القلم في نكت الهجو كلها ، ومازال هؤلاء المعلمون القاصرون يتهافتون عليها ويعجبون منها»(٥) وقوله « فهذا الكلام عجيب لمن

---

(١) التنهبيات ص٦١ ومابعدها.

(٢) السابق ص ٦٤.

(٣) السابق ص ٦٧.

(٤) السابق ص٧٧.

(٥) السابق ص ١٢٦.

تأمله، وعنده يقال ما أحسن الصمت وأجمله»[١]، وقوله «ونعود إلى كلامه الذى ينزل من عمود البلاغة منزلة القشر من اللباب، والدثار من الإهاب»[٢].

وقد تعمدت ذكر نماذج عديدة من سخريته اللاذعة بالمؤلف لترى تحامل ابن عميرة وشدة قسوته على الزملكاني حيث لم يترك نقيصة إلا ونسبها إليه، ولاعيباً إلا وعابه به حتى لكأن غايته اظهار تفوقه العلمي وبراعته فى النقد لا وصولاً إلى الحق وطلباً للصواب.

ومع أن ردود ابن عميرة على الزملكاني هى ردود على إمام البلاغيين عبد القاهر الجرجاني لأن كتاب التبيان كما سبقت الإشارة هو فى جملته إعادة ترتيب وتبويت وتهذيب لكتاب دلائل الإعجاز إلا أننا نجد ابن عميرة فى هذا الاعتراضات والردود- رغم شهادة العلماء بتفوقه في ميادين العلم وأنه كان رحمه الله خزنة من خزائن العلم - خالى الوفاض من علوم البلاغة، وأنه أقحم نفسه في هذا الميدان دون أن يتزود من هذا العلم بزاد طيب فأدخل أنفه فى غير فنه، وهذا مايشعر به القارئ - الذي لديه إلمام بعلوم البلاغة - منذ الوهلة الأولى.

وسنقوم فى هذه الدراسة بعرض اعتراضات ومآخذ ابن عميرة على الزملكاني فى مباحث علم البيان ومناقشتها مناقشة علمية جادة تهدف إلى إحقاق الحق وإعادة الأمور إلى نصابها بإنصاف الزملكاني من ابن عميرة.

وتجدر الإشارة إلى أن اعتراضات ابن عميرة تنقسم إلى قسمين «أولاً: اعتراضات على آراء واجتهادات لصاحب التبيان، وثانيها: اعتراضات على مقررات البلاغيين.

---

(١) السابق ص ١٠٥.

(٢) السابق ص ١٢٦.

وفى مناقشتنا لاعتراضات ابن عميرة على الزملكاني فى مباحث علم البيان لن نسلك الطريق الذي سلكه ابن عميرة فى ردوده على صاحب التبيان، بل نقوم بجمع النظير إلى نظيره ثم تقسيمها وتبويبها وتوزيعها في مباحث على النحو الآتي:-

المبحث الأول : فى الكناية.

المبحث الثانى : فى الاستعارة.

المبحث الثالث: فى التمثيل أو الاستعارة التمثيلية.

المبحث الرابع: فى المجاز العقلي.

المبحث الخامس: في التشبيه.

وهذا أوان الشروع فى المبحث الأول نسأل الله العون والتوفيق..

المبحث الأول: فى الكناية ..

أولاً: اعتراضاته على آراء للمؤلف..

استهل أبو المطرف بن عميرة كتابه باعتراض على المؤلف في جعله الكناية في الدلالات الإفرادية قائلاً «ابتدأ الكلام في الدلالات الإفرادية، وجعل القول في ذلك في ثلاثة أبواب، الأول في الحقيقة والمجاز، قال: اللفظ إما أن يراد به ظاهره في ذلك الاصطلاح ، ويسمى الحقيقة كالأسد يراد به السبع، أو غير الظاهر، وذلك هو المجاز كما يقال «الأسد، على الشجاع، ثم حصر المجاز في ثلاثة أقسام: أولها الكناية ورسمها بما معناه أو بيانه: أن تريد معنى فتدل عليه بلفظ معناه لازم لذلك المعنى، ومثل بقولهم : «فلان كثير رماد القدر» و «طويل نجاد السيف».

وهذا كأنه ذهول ما ، فالكلام إنما وضعه في هذا القسم في الدلالات الإفرادية وليس أمثلته كذلك، وعن الجماع بالمسيس أو الغشيان مثلا»[١].

فى هذا الاعتراض نرى ابن عميرة قد أصاب في أمر وأخطأ فى أمر آخر ، أما الأمر الذي أصاب فيه وكان موفقاً فيه فهو اعتراضه على المؤلف حين جعل الكناية فى الدلالات الإفرادية لأن الكناية لاتفهم من اللفظ المفرد وإنما تفهم وإنما تفهم وتستفاد من التراكيب اللغوية، فالمعنى المباشر للتركيب- أو للكلام - ليس مراداً لذاته بل يجعل وسيلة للتوصل إلى المعنى الكنائى المقصود.

أما الأمر الذي أخطأ فيه فهو اعتراضه على الشواهد التي ذكرها المؤلف للكناية بقوله وليس أمثلته كذلك ، والأولى أن يعبر عن الخمر بالمطربة وعن الجماع بالمسيس والغشيان مثلا «لأن هذه الشواهد التى اعترض عليها ابن عميرة هى شواهد استشهد بها الإمام عبد القاهر الجرجانى على الكناية، ونجدها فى كتب البلاغيين من بعده كأمثلة للكناية.

ولعل فهمه القاصر للكناية دفعه إلى الاعتراض على هذه الأمثلة، لأن الكناية عنده كما يفهم من كلامه أن تكنى عن لفظ بلفظ آخر، وهو بهذا الفهم يعود بنا إلى المراحل الأولى لنشأة الكناية في التراث بعد أن أفرغ فيها البلاغيون جهودهم المثمرة وبحوثهم الخصبة التي أصبحت مقررة لديهم يعرفها شداة العلم فضلا عن كبار العلماء.

وحين أراد التمثيل للكناية لم يزد على ماصنعه البلاغيون حيث مثل لها بالأمثلة التي نص علماء البلاغة والتفسير بأنها من الكناية.

---

(١) التنبيهات على مافي كتاب التبيان من التمويهات لأبى المطرف أحمد بن عميرة المخزومي تحقيق محمد بن شريفه مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء الطبعة الأولى سنة ١٩٩١ ص ٥٥.

حيث يقول «والأولى أن يعبر عن الخمر بالمطرية وعن الجماع بالمسيس والغشيان مثلاً» وهو بهذا يشير إلى الآيات القرآنية قال تعالى: «أو لامستم النساء»[١] وقال تعالى «فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً»[٢].

فهاتان الآيتان الكريمتان من كنايات القرآن الكريم التي تعد انعكاساً صادقاً للأدب الرفيع والخلق الكريم الذي يدعو إليه القرآن الكريم.

ففي الآية الأولى كنى بالملامسة عن الجماع[٣] . وفى الثانية عبر بالتغشي عن الجماع، فهو كناية عن الجماع وكذلك الغشيان والإتيان كما صرح بذلك الزمخشري وغيره[٤].

ومن الاعتراضات التي ذكرها ابنت عميرة في كتابه اعتراضه على المولف حين عد قول الشاعر:

ومايك فى من عيب فإنى جبان الكلب مهزول الفصيل

كناية عن نسبة، وهو من شواهد البلاغيين فى الكناية عن الصفة بقوله قال: وليست الكناية منحصرة في هذا الضرب، أي في أن يكني عن الشئ بلازمه، بل قد تكون الكناية أخرى، وهي أن يأتوا بالمراد كالمدح مثلاً لا منسوباً لذات الممدوح بل إلى شئ آخر يشتمل عليه وأنشد بيت زياد:

---

(١) سورة المائدة الآية ٦.

(٢) سورة الاعراف الآية ١٨٩.

(٣) انظر المنتخب من كنايات الأدباء للجرجاني ص٩.

(٤) انظر الكشاف لجار الله محمود بن عمر الزمخشري ١٣٦/٢ وتفسر أبي السعود ٤٤٩/٢ والكناية والتعريض للثعالبي ص١٣ والبلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشري للدكتور محمد أبو موسى الطبعة الثانية ص ٥٦٢.

إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

ثم قال ومثله:

وما يك في من عيب فإنى جبان الكلب مهزول الفصيل

وهذا أقرب إلى النوع الأول منه إلى بيت زياد، بل لاتجد فرقاً بين كنايته عن السخاء وقرى الأضياف بعظم الرماد وكنايته بجبن الكلب وهزال الفصيل، في أنه عبر عن المعنى بلازم من لوازمه فلا أدري لم أخره عنه(١).

وبتأمل هذا الاعتراض نجد أبا المطرف قد أصاب فيما أخذه على الزملكاني لأن كلامه يوهم بأن البيت الثانى مثل الأول يصلح شاهداً للكناية عن النسبة وهذا خطأ محض.

فالبيت الأول: إن السماحة والمروءة والندى.. هو من شواهد البلاغيين فى الكناية عن النسبة،(٢) أما البيت الثانى: «ومايك فى من عيب».. فهو شاهد يتردد فى كتب البلاغيين على الكناية عن الصفة(٣).

ولعلك تدرك مابينهما من الفروق لأن الشاعر في البيت الأول لم ينسب هذه الصفات المذكورة صراحة إلى الممدوح بل صرح بنسبة هذه الصفات للقبة حيث جعلت فيها، وهي صفات لاتقوم بنفسها بل بغيرها وذلك الغير هو القبة فتعين أن يكون هو المضروب عليه القبة بصلاحيته لها وعدم

---

(١) التنبيهات ص ٥٦.

(٢) انظر الإيضاح للخطيب القزوينى تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي ص ٤٩٢ وشروح التلخيص ٤/٢٥٨ وما بعدها والمطول ص ٤١١ وبغية الإيضاح ٣/ ١٨٢.

(٣) الإيضاح ص ٤٥٩ وشروح التلخيص ٤/٢٥٧ وبغية الإيضاح ٣/١٧٨.

مشاركة غيره له فى القبة، فيكون المقصود من هذه الكناية نسبة تلك الصفات وثبوتها له عن طريق الدليل والبرهان.

أما البيت الثاني فقد توصل الشاعر إلى مدح نفسه بالكرم بقوله «جبان الكلب مهزول الفصيل، لأن جبن الكلب عن الهرير في وجه من يقترب من دار صاحبه لازم لتأديبه المستمر ، واستمرار تأديبه لازم لرؤيته وجوها إثر وجوه لأن ساحة صاحبه مقصودة، وهذا لازم لكثرة قرى الأضياف وهو لازم للكرم، وكذلك الحال بالنسبة لهزال الفصيل، لأن هزال الفصيل معناه أنه فقد أمه ، وفقد أمه دليل على قوة الداعي لنحرها وصرفها للطبخ الذى هو لازم لقرى الأضياف وهو لازم للكرم[1].

ثانياً: اعتراضات ابن عميرة على مقررات البلاغيين:

غير خاف في أن كثيراً من اعتراضات ابن عميرة ومآخذه على صاحب التبيان هى فى حقيقة أمرها اعتراضات على قواعد البلاغيين ومقرراتهم التي تعارفوا عليها ، لأن الزملكاني كما أسلفنا الحديث من قبل كان ملخصاً ومهذباً لكتاب دلائل الإعجاز الإمام عبد القاهر الجرجانى.

وأول اعتراض وجهه ابن عميرة على مقررات البلاغيين اعتراضه على أن الكنايه أبلغ من التصريح بقوله «إن ذكر الحكم بدليله وشاهده أوقع من ذكره مجرداً عن الشاهد، فالدليل هو عظم الرماد ، والحكم هو السخاء والبذل، وذكرهما معاً كماً قال هو أن يقال: فلان جواد عظيم الرماد: فيأتي بالمدلول ودليله كما زعم.

---

(١) انظر دلائل الاعجاز لإمام عبد القاهر الجرجانى ص٣٠٦ والإيضاح ٤٥٩/١ - ٤٦٢ وشروح التلخيص ٢٥٧/٤ - ٢٥٩ ونظرات فى البيان للدكتور محمد عبد الرحمن الكردي ص ٢٥٨-٢٦١ وعلم البيان فى الدراسات البلاغية للدكتور على البدري ص ٢٦٩.

وليس كذلك، فإنما قال: عظيم الرماد فقط دون أن يدعي له جوداً يدل عليه ، والأولى أن يقال: إن القول بكتسب رونقاً بأن لايستعمل على وضعه الأصلي، بل بأن تعين دلالته، وذلك لأن اللفظ علامة على المعنى، ومن تمامه وكماله أن يكون له فى نفسه حال يكون بها ذا رونق حتى يجمع إلى الدلالة حسن التخييل»[١].

ولايخفى تهافت هذا الاعتراض وقصوره ودلالته على أن قائله ليس على قدم راسخة من علوم البلاغة لسببين اثنين:

اولهما: إن منطق العقل يتفق تمام الاتفاق مع هذه الحقيقة التي قررها البلاغيون لأن ذكر الشئ يصحبه برهانه ودليله أكثر إقناعاً للعقل وأشد تأثيراً فى النفس من ذكره مجردا عن دليله وبرهانه.

وثانيهما: أن علماء البلاغة سلفاً وخلفاً مجمعون على أن الكناية أبلغ من التعبير الصريح المباشر لأنها كدعوى الشئ بالبينة والبرهان[٢].

فإذا قلت : محمد كريم، فأنت في هذه العبارة قد أثبت لمحمد الكرم فقط، وسقت كلامك خالياً من الدليل، أما إذا قلت: محمد كثير الرماد، فإنك قد اثبت له هذا الحكم بدليله وبرهانه كأنك تقول: هو كريم ، والدليل على كرمه كثرة الرماد أمام داره.

---

(١) التنبيهات ص ٥٥.

(٢) انظر دلائل الإعجاز ص٧٠- ٧٢ والإيضاح ص ٤٦٨ وشروح التلخيص، ٤/٢٧٤ ومابعدها وعلم البيان فى الدراسات البلاغية للدكتور علي البدري ص٢٨٨ والكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي لمحمد الحسن الأمين. مكتبة الفيصلية بمكة الطبعة الأولى ص٤٩ ومابعدها. ونظرات فى البيان ص٢٦٦.

لهذا السبب كانت الكناية أبلغ من التصريح لأنك «إذا عدلت عن التصريح بالمعني إلى الكناية عنه فقد أديته مصحوباً بدليله، مقروناً بشاهد وجوده.

ولاجدال في أن ذكر الشئ يصحبه برهانه ودليلة أوقع في النفس وآكد لإثباته من أن تثبته ساذجاً غفلاً من غير برهان، وذلك أنك لاتدعي شاهد المعنى ودليله إلا والأمر ظاهر معروف، وبحيث لا يشك فيه، ولايظن بالمخبر السهو أو الغلط ، فالكناية تصوير وبرهان(١).

بعد أن بينا تهافت اعتراض ابن عميرة على أبلغية الكناية على التصريح لأنه لم يستند فيه على دليل يقبله العقل، فإن لنا على كلامه بعض اعتراضات جديرة بالمناقشة.

أولاً: أنه فهم من كلام الزملكاني: «أن ذكر الحكم بدليله وشاهده أوقع من ذكره مجرداً عن الشاهد» .. أنه لابد من ذكر الدليل والمدلول معاً فيقال «فلان جواد عظيم الرماد» ثم وصف كلام المولف بالزعم مع أن كلامه مرفوض جملة وتفصيلاً - قائلاً «فالدليل هو عظم الرماد ، والحكم هو السخاء والبذل، وذكرهما معاً كما قال هو أن يقال: « فلان جواد عظيم الرماد » فيأتى بالمدلول ودليله كما زعم.

وليس كذلك فإنما قال: «عظيم الرماد فقط دون أن يدعى له جوداً يدل عليه» (٢) وهذا فهم خاطئ لمصطلح الكناية لأنها تأدية المعنى المراد بذكر لازم من لوازمه ، واللازم يستدعي الملزوم حتماً، فإذا قلت: فلان عظيم الرماد فإن الذهن ينتقل من لازم اللفظ وهو عظم الرماد إلى ملزومه وهو

---

(١) البلاغة التطبيقية للدكتور أحمد موسى ص ٢٧٢ وراجع الدلائل ص٧٢.

(٢) التنبيهات ص٥٥.

الكرم، فالكرم هو المعنى المدلول عليه بهذه العبارة فلا حاجة إلى ذكره في الكلام لأنه من بدائه الأمور إلا أننا نجد ابن عميرة من خلال هذا النص يشترط الإتيان بالمدلول ودليله بأن يقال: «فلان جواد عظيم الرماد، ويعترض على الزملكاني لأنه قال «عظيم الرماد فقط دون أن يدعى له جوداً يدل عليه».

فهو كما ترى يعزل المعنى المراد هو الجود والسخاء، ويشترط ذكره في العبارة مع أنه لايتفق مع مفهوم الكناية الواردة في كلام العرب التى يجعل فيها اللفظ المباشر ليس مقصوراً لذاته بل يجعل وسيلة للتوصل إلى المعنى الكنائي المراد كالجود المفهوم من العبارة السابقة «هو عظيم الرماد».

فابن عميرة لايعترض على البلاغيين وحدهم بل يعترض على كلام العرب لأنه يتصادم مع الإيجاز الذي بنيت عليه لغة العرب.

ثانياً: يري ابن عميرة أن الكلام يكتسب رونقاً إذا استعمل فى غير وضعه الأصلي يقول «إن الكلام يكتسب رونقاً بإن لايستعمل على وضعه الأصلى».

فهذا الرأى الذي ارتآه ابن عميرة في أن الكلام يكتسب إذا استعمل فى غير وضعه الأصلى أي اذا استعمل استعمالاً مجازياً، مخالف لتعريف بلاغة الكلام في اصطلاح البلاغيين بأنها «مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته[1].

فمتى كان كلام البليغ - سواء كان تعبيراً حقيقياً أو تعبيراً مجازياً - مطابقاً لمقتضى الحال كان كلامه بليغاً لامحالة.

---

(١) انظر الايضاح ص ٨٠ وشروح التلخيص ١٢٢/١ بغية الإيضاح ٢٦/١.

فحين يقتضي المقام التعبير بالحقيقة تكون أبلغ من التعبير المجاري، وحين يقتضى المقام التعبير بالمجاز يكون أبلغ من الحقيقة المجردة.

ولكى يزداد لك الأمر وضوحاً أقول: حين تريد أن تصف رجلاً بالكرم دون أن تنفعل نفسك بكرمه وسخائه تستعمل الأسلوب الحقيقي المباشر فتقول: هو كريم، فتكون الحقيقة أيلغ لأن المقام اقتضى التعبير بها ، أما حين تنفعل نفسك بشدة كرمه وعظيم سخائه وكثرة بذله، وتريد أن تبالغ في وصفه بالكرم تلجأ إلى المجاز فتقول: رأيت بحراً لايمنع أحداً رفده، فيكون المجاز أبلغ من التعبير الحقيقى حين يقتضيه الحال ويتطلبه المقام، ولهذا صدق البلاغيون فى قولهم بأن لكل مقام مقالاً.

فأنت ترى أن إطلاق هذا الكلام على عواهنه- أعني أن الكلام يكتسب رونقاً بأن لا يستعمل على وضعه الأصلي- دون تحديده بالمقام لايتفق مع ماذهب إليه البلاغيون على النحو الذي بيناه فيما سبق.

ثالثاً: يذهب ابن عميرة إلى رد المزية إلى اللفظ بقوله «ومن تمامه وكماله - أي من تمام اللفظ وكماله- أن يكون له حال يكون بها ذا رونق حتى يجمع إلى الدلالة حسن التخييل[1].

فابن عمير - كما ترى- يجعل المزية للفظ وحده دون مراعاة التركيب وهو بهذا الفهم يخالف رأي إمام البلاغيين الشيخ عبد القاهر الذي يرجع المزية إلى اللفظ والمعنى ومدى ملائمة الكلمة لمعاني أخواتها فى السياق حيث يقول «فقد اتضح إذن اتضاحاً لايدع للشك مجالاً أن الألفاظ لاتتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن

---

(١) التنبيهات ص ٥٦.

الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى الكلمة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك، مما لاتعلق له بصريح اللفظ»[١].

ومما اعترض به أبو المطرف على البلاغيين اعتراضه على المؤلف في الأبيات- التي قيلت في رثاء البرامكة- التي استشهد بها على الكناية متابعاً الشيخ عبد القاهر[٢] ويرفض أن تكون الكناية بل من الاستعارة المكنية وإن لم يسمها باسمها الذي تعارف عليه البلاغيون حيث يقول «وقال بعد هذا» وقد جاء منه فن غريب» وأنشد ماقيل في رثاء البرامكة:

سألت الندى والجود مالي أراكما ... تبدلتما ذلا بعز مؤبد
وما بال ركن المجد أمس مهدما ... فقالا أصبنا بابن يحي محمد
فقالا أقمنا كي نعزى بفقده ... مسافة يوم ثم نتلوه في غد

وهذا ليس من الكناية في شئ ، لايقال أنه كنى بنفس الندى عن حال ذي الندى، وإنما تخيله ذا نفس ناطقة، وقد تنكرت حاله، وذل جانبه ، وخانته أيامه، فسأله عما دهاه وأصاره إلى ماهو عليه، فأجابه بمصابه في هذا البيت»[٣].

في هذا الاعتراض الذي أصاب فيه ابن عميرة لاعتماده على ذوقه وإحساسه المرهف نجده أبر من البلاغيين[٤] بحق الأساليب- لقدرتها على الوفاء بأغراض قائليها - في رفضه للكناية التي ذهب إليها عبد القاهر الجرجاني ومن جاء بعده من البلاغيين، ويرى أن تكون استعارة مكنية وذلك

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٤٦ ومابعدها وانظرز ص ٤٤ - ٤٥.
(٢) انظر السابق ص ٣١٤.
(٣) التنبيهات ص ٥٧ ومابعدها.
(٤) انظر دلائل الإعجاز ص ٣١٤ والتبيان في علم البيان ص ٤٠ ومابعدها.

بتشبيه الندى والجود بإنسان قد تنكرت حاله وذلك جانبه وخانته أيامه. فسأله عما دهاه وأصاره إلى ماهو عليه ثم حذف المشبه به ورمز له بشئ من لوازمه وهو الجواب : فقالا... » على سبيل الاستعارة المكنية. وليس من شك في أن وضوح أثر التشبيه يحتم اعتبار الصورة البلاغية فى هذه الأبيات من الاستعارة المكنية لا من الكناية كما يرى بعض البلاغيين ، لأن الأبيات كما ترى مليئة بالصور الحية التى تنبض بالحركة والحياة . وصدق التجربة الشعورية لدى الشاعر وعاطفته المشبوبة أثارت خياله الذي أجرى على لسانه هذه الصورة الشاخصة الناطقة حيث تخيل الندى والجود ذا نفس ناطقة فبث الحياة فيما لاحياة فيه، وصور الأمور المعنوية فى صورة حسية تتجسد للعيان.

المبحث الثانى: في الاستعارة..

يعترض ابن عميرة على المؤلف في تقسيمه الاستعارة الى ضربين بقوله «ثم انتقل إلى الاستعارة وجعلها ضربين: أحدهما: أن يطلق اسم المشبه به على المشبه من غير أداة كقولك رأيت أسداً ، والثاني: أن تجعل للشئ الشئ وليس له ، نحو قوله «إذ أصبحت بيد الشمال زمامها».

وأولى من هذه العبارة الاقتصار على ما قاله آخراً من جعل الشئ الشئ أو جعل الشئ غيره ولايحتاج للقسمة إلى ضربين، فقولك رأيت أسداً جعلت أسداً ماليس بأسد، وكذلك قوله «بيد الشمال» جعلت يداً لما ليس بذي يد»[1].

---

(١) التنبيهات ص ٥٨ ومابعدها.

ليس هذا اعتراض على الزملكاني بل اعتراض على إمام البلاغيين الشيخ عبد القاهر، لأن الزملكاني لم يكن صاحب رأي في البلاغة بل كان ملخصاً ومهذباً لكتاب دلائل الإعجاز.

وكان من واجب ابن عميرة- وهو يرد على الزملكاني - أن يعود إلى كتاب الدلائل ليرى هل أصاب الزملكاني فى تلخيص كلام عبد القاهر أم لم يصب؟ فإذا لم يصب الزملكاني فى التلخيص يكون اعتراضه عليه فى محله ، ويكون مسلكه عنئذ مسلكاً جميداً يرفع من قدره ويزيد من مكانته العلمية.

وإذا أصاب فى تلخيص كلام عبد القاهر فإما أن يسلم بما ذكره الزملكاني وإما أن يعترض علي الشيخ عبد القاهر، لكنه للأسف لم يفعل ذلك بل كان جريئاً فى رفض آراء البلاغيين وهدم مقرراتهم من خلال ردوده على الزملكاني التى تتسم بالسخرية اللادغة والتهكم الساخر.

والزملكاني فى تقسيمه للاستعارة إلى ضربين كان يسير على نهج الشيخ عبد القاهر حيث قسمها إلى قسمين فى قوله «الاستعارة أن تريد تشبيه الشئ بالشئ فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره، وتجئ إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه ، تريد أن تقول: «رأيت رجلاً هو كالأسد في شجاعته وقوة بطشه سواء ، فتدع ذلك وتقول «رأيت أسداً، وضرب آخر من الاستعارة وهو ماكان نحو قوله «إذ أصبحت بيد الشمال زمامها». هذا الضرب وإن كان يضمونه وإن كان يضمونه إلى الأول حيث يذكرون الإستعمارة فليسا سواء ، وذلك أنك في الأول تجعل الشئ الشئ ليس به، وفى الثاني للشئ الشئ ليس له»[1]. ولم يزد البلاغيون بعد عبد القاهر

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٦٧.

على ماصمنه الشيخ سوى وضع مصطلحات علمية لهذين القسمين أصبحت سائدة فى كتبهم إلى يومنا هذا، فأولهما أطلقوا عليه الاستعارة التصريحية: وهي ماصرح فيها بلفظ المشبه به ، والثانى اطلقوا عليه الاستعارة المكنية وهى لفظ المشبه به المحذوف المستعار فى النفس للمشبه المرموز إليه بإثبات لازمه بعد حذفه للمشبه(١)

لكننا نجد ابن عميرة يعترض على هذا التقسيم بجعل الاستعارة ضرباً واحداً، وهذا الكلام وإن كان دالاً على قلة بضاعته من علم البيان فإن مافيه من الفساد والتكلف لايخفى على من أوتي حظاً من الفهم. بيان ذلك: أنه قال«وأولى من هذه العبارة الاقتصار على ماقاله آخراً من جعل الشئ الشئ، أو جعل الشئ غيره ولايحتاج للقسمة إلى ضربين فلم يكن أميناً فى نقل كلام الزملكانى الذى قال «الضرب الأول: أن تطلق اسم المشبه به على المشبه من غير أداة تشبيه كقولك «رأيت أسداً» وأنت تريد إنساناً كالأسد فى شجاعته، فقد جعلت الشئ للشئ وليس به ، الضرب الثاني: أن تجعل الشئ للشئ وليس له نحو قوله «إذ أصبحت بيد الشمال زمامها »(٢).

ثم إن قوله «جعل الشئ الشئ» معناه أنك جعلت المشبه به للمشبه فهو من الاستعارة التصريحية، وكذلك قوله «جعل اتلشئ غير معناه أنك جعلت لفظ المشبه به للمشبه مع أنه غيره فهو كسابقه من الاستعارة التصحيحة. فهما كما يفهم من كلامه أمكر واحد وليسا أمرين أو ضربين،

---

(١) انظر الايضاح ص ٤٢٩ و ٤٤٤ ومابعدها بغية الإيضاح ٣/١٠٤ ، ١٥٤ ، والبلاغة التطبيقية ص ١٢١ ، ٢٠٠ ونظرات فى البيان ص ١٧٧ ومابعدها.

(٢) التبيان فى علم البيان ص ٤١ ومابعدها.

وإنما سلك ابن عميرة هذا المسلك ليتوصل إلى رفض هذا التقسيم، وليجعل القارئ على يقين بفساد هذا التقسيم وضعفه، وأن ما قاله عين الصواب، ولذلك أضاف قائلاً «ولايحتاح للقسمة إلى ضربين فقولك» رأيت أسداً جعلت أسداً ماليس بأسد، وكذلك قوله «بيد الشمال» جعلت يدا لما ليس بذي يد»[1] ليوهم بأنهما ضرب واحد وليس ضربين ، بيد أن بين هاتين الاستعارتين فرقاً كبيراً لايكاد يلتبس على من خبر الأساليب وأطال معايشتها وأدام النظر فيها ، فقولك «رأيت أسدا» فقد إدعيت في إنسان أنه أسد وجعلته إياه، ولايكون الإنسان أسداً لكنك لما إردت المبالغة فى وصفه بالشجاعة وأنه والأسد سواء، إدعيت أن المشبه وهو الرجل الشجاع فرد من افراد المشبه به وداخل فى جنسه. أما قوله «يد الشمال» فقد أراد الشاعر أن يثبت للشمال تصرفاً كتصرف الإنسان فى الشئ يقلبه بين يديه كيف يشاء فاستعار لها «اليد» من خلال تشبيه الشمال بإنسان ثم حذف منه لفظ المشبه به ورمز له بشئ من لوازمه وهو «اليد» ومعلوم أنه ليس للريح يد، لكن الشاعر لما أراد أن يبالغ فى تحقيق الشبه إدعى أن للشمال يدا»[2].

وثمت فرق آخر يفصل بين القسمين كما يقول عبد القاهر «ويفصل بين القسمين أنك إذا رجعت فى القسم الأول إلى التشبيه الذى هو المغزى من كل استعارة تفيد، وجدته يأتيك عفواً، كقولك في «رأيت أسداً» رأيت رجلا كالأسد» أو «رأيت مثل الأسد، أو « شبيها بالأسد «وإن رمته فى القسم الثاني وجدته لا يؤاتيك تلك المؤاتاة ، إذ لاوجه لأن تقول: «إذ أصبح شـــئ

---

(١) التنبيهات ص٥٩.

(٢) راجع دلائل الإعجاز ص ٦٧ وأسرار البلاغة ص ٤٦.

مثل اليد للشمال» أو حصل شبيه باليد للشمال «وإنما يتراءى لك التشبيه بعد أن تخرق إليه سترا وتعمل تأملاً وفكراً، وبعد أن تعير الطريقة، وتخرج عن الحذو الأول، كقولك «إذ أصبحت الشمال ولها فى قوة تأثيرها فى الغداة شبه المال تصريف الشئ بيده، وإجراءه على موافقته، وجذبه نحو الجهة التى تقتضيها طبيعته ، وتنحوها إرادته» فأنت كما ترى تجد الشبه المنتزع ههنا إذا رجعت إلى الحقيقة ، ووضعت الاسم المستعار فى موضعه الأصلي، لايلقاك من المستعار نفسه، بل مما يضاف إليه، ألا ترى أنك لم ترد إن تجعل الشمال كاليد ومشبهة باليد، كما جعلت الرجل كالأسد ومشبهاً بالأسد، ولكنك أردت أن تجعل «الشمال» كذي اليد من الأحياء، فأنت تجعل فى هذا الضرب المستعار له وهو نحو «الشمال» ذا شئ ، وغرضك أن تثبت له حكم من يكون له ذلك الشئ فى فعل أو غيره ، لانفس ذلك الشئ، فاعرفه»[1]

بهذا البيان الشافي يتضح لك الفرق بين هاتين الاستعارتين فيهما ليستا من قبيل واحد كما زعم ابن عميرة.

بعد ذلك رفض ابن عميرة الموازنة التى اعتاد البلاغيون إجراءها لبيان الفرق بين الاستعارة والتشبيه من خلال رفضه لكلام الزملكاني قائلاً «ثم قايس بين قول القائل» «رأيت أسدا» وقوله «زيد اسد ، وحكم بأن الأول أقعد بالمعنى، والمقايسة إنما تصح إذا أخذناهما مجازين معاً فى قضيتين يتحد فيهما المخبر عنه حتى يقال أي القولين أشد إشعاراً بالمعنى المقصود منهما ، هو قولنا «رأيت زيداً فرأيت منه أسداً» أو قولنا «زيد أسد» وحينئذ يظهر أن الذى قاله لاطائل تحته. وقوله «لإشعاره أولا أن

---

(١) أسرار البلاغة ص ٤٧.

المرئي ذات الأسد، وعند هذا الحد تبطل المقايسة وتصير كقول من يقول: أي القولين أبلغ؟ «رأيت فرسا» أو «زيد إنسان»، ثم قوله : إن قولك «رأيت أسدا» يشعر بأن المرئى ذات الأسد وبهذا الإشعار رجح هذه العبارة على الأخرى، أرأيت إن وضعنا بدل قولنا «زيد أسد» هذا المرئي أسد» هل يلحقه هذا العمل بذروة الأول أن يتركه فى وهدة الثاني»[1].

قبل أن أبدأ بمناقشة ابن عميرة فى اعتراضه أود أن أضع بين بين يديك كلام الزملكاني ليزداد لك الأمر وضوحاً، يقول الزملكاني «فإن قلت: أقولك رأيت أسدا» كقولك «زيد أسد»؟ قلت: لا، ألا تر أن الأول قد نزل منزلة الشئ الثابت الذى لم تبق له حاجة إلى الأخذ فى إثباته، وأن الثانى عسكه ، وظهر أن الأول أقعد فى المعنى لإشعاره من أول وهلة أن المرئي ذات الأسد بخلاف الثاني فإنه أفهمك حقيقة إنسان إدعى أنها حقيقة أسد»[2].

ومع وضوح كلام الزملكاني إلا أنه لم يستطع تلخيص كلام عبد القاهر على الوجه المطلوب رغم وضوحه حيث يقول «وأما الاستعارة فسبب ماترى لها من المزية والفخامة أنك إذا قلت «رأيت أسداً» كنت تلطفت لما أردت إثباته لع من فرط الشجاعة، حتى جعلتها كالشئ الذي يجب له الثبوت والحصول، وكالأمر الذي نصب له دليل يقطع بورجوده وذلك أنه إذا كان أسداً ، فواجب أن تكون له تلك الشجاعة العظيمة، وكالمستحيل أو الممتنع أن يعرى عنها، وإذا صرحت بالتشبيه فقلت «رأيت رجلاً كالأسد»

---

(١) التنبيهات ص ٥٩.

(٢) التبيان فى علم البيان ص ٤٢.

كنت قد أثبتها إثبات الشئ يترجح أن يكون وبين أن لا يكون، ولم يكن من حديث الوجوب فى شئ»[1].

وبعد أن بانت لك السبيل واتضح لك الفرق بين الاستعارة والتشبيه انتقل إلى مناقشة اعتراض ابن عميرة مؤكداً بادئ ذي بدء بأن كلامه قائم على المغالطة والتمويه، معتمد فيه على أمرين: الأول: تمكنه من علوم الفلسفة والمنطق، الثاني: ذرابة لسانه ونصاعة بيانه.

وتكمن المغالطة والتمويه في قوله «والمقايسة إنما تصح إذا أخذناهما مجازين» حيث قرر بأن المقايسة تصح إذا كانا مجازين ، والراجح لدى البلاغيين أن المثال الأول استعارة، والثاني تشبيه بليغ، فما داما ليسا مجازين إذن المقايسة غير صحيحة.

بهذا المنطق الملتوى الذي حرص فيه ابن عميرة على إقناع القارئ استطاع منذ الوهلة الأولى أن يصل إلى هدفه ببيان فساد هذا الأساس الذي عول عليه البلاغيون في ايضاح الفرق بين الاستعارة والتشبيه غير أن القارئ الفطن لايخفى عليه تعسف ابن عميرة وجوره وبعده عن القصد لأنه من الراجح لدى البلاغيين أن المثال الأول «رأيت أسدا» استعارة ، والثاني «زيد أسد» تشبيه بليغ ، والبلاغيون وهم يعنون بإيضاح أوجه التباين والاختلاف بين الأساليب إنما يحرصون على تقدير مسائل العلم فى أذهان الطلاب.

ثم لما أكد ابن عميرة ذلك أضاف قائلاً «إذا أخذناهما مجازين فى قضيتين يتحد فيهما المخبر عنه «ليقرر بأن المخبر عنه لم يتحد فى المثالين، والصواب أن المخبر عنه واحد فى كلا المثالين، لأنك لاتقول «رأيت أسداً»

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٧٢.

فتستعير لفظ «الأسد» لتدل به على أي إنسان كان، بل تستعيره لتدل به على «زيد» المصرح به فى قولك «زيد أسد» فالمخبر عنه واحد فى المثالين، فهو كما ترى اعتمد على المغالطة والتمويه ليتوصل بعد ذلك إلى القول «وحينئذ يظهر أن الذى قاله لاطائل تحته». وحسبي أن أقف عند هذا القدر من مناقشة كلام ابن عميرة في هذه المسألة، وإن كان آخر كلامه- مع وضوح مافيه من السخرية واللمز والتهكم بصاحب التبيان- لايقوى على غمز النقد.

ومما يؤكد قلة بضاعة ابن عميرة من علم البيان، ويدل على اختلاط المسائل البلاغية في ذهنه تأكيده على أن الاستعارة ضرب واحد، وإصراره على أن قولك «زيد أسد» - وهو كما تعلم من التشبيه البليغ- استعارة وإن أبى ذلك فرسان علم البيان بقوله «وإذا فهم ماقلناه لم يكن ثم إلا ضرب واحد، والتشبيه يجرى مجري الاستعارة، والفرق بينهما أن الاستعارة المذكورة هاهنا تجعل الشئ غيره، والتشبيه يحكم به على الشئ أنه كغيره لا أنه غيره ، فقولك «زيد أسد» هو من جعل الشئ غيره فهو صريح فى هذه الاستعارة وإن أبى ذلك فرسان علم البيان كما زعم»[1].

فى هذا النص يؤكد ابن عميرة ماقرره من قبل في جعل الاستعارة ضرباً واحداً ، وقد سبق أن ناقشنا ذلك ، وبينا فساد رأيه فى هذه القضية.

ونحن نتفق معه فى أن الفرق الذي أشار إليه بين التشبيه والاستعارة فرق صحيح لايكاد يختلف حوله أحد من البلاغيين، لأن الاستعارة أن تجعل الشئ غيره، أما التشبيه فهو أن تجعل الشئ أنه كغيره.

---

(١) التنبيهات ص ٥٩- ٦٠.

ولو أن كلام ابن عميرة انتهى عند هذا الحد لكنا سلمنا له بما ذكره، وشكرنا له صنيعه هذا، لكنه استرسل في الكلام ليدلنا دلالة قاطعة على قصور باعه وقلة تحصيله من علم البيان بقوله «فقولك» زيد أسد» هو من جعل الشئ غيره فهو صريح فى الاستعارة وإن أبى ذلك فرسان علم البيان كما زعم». فهو يرى أن التشبيه ماذكرت فيه الأداة، أما إذا حذفت منه الأداة فهو استعارة، غير أن الراجح لدى البلاغيين أن قولك «زيد أسد» تشبيه بليغ لأنه حذف منه الوجه والأداة.

وابن عميرة فى اصراره على جعل هذا التعبير استعارة يؤكد ماقلناه سابقاً باختلاط المسائل البلاغية في ذهنه بعد أن أصبحت واضحة المعالم بارزة الحدود مكتملة البنيان.

وهو فى موقفه هذا يتفق مع بعض العلماء المتقدمين من أمثال ابن قتيبة والرماني وابن فارس وأبي هلال العسكري وابن سنان الخفاجي وغيرهم ممن أطلقوا على بعض صور التشبيه البليغ استعارة(١).

وهذه المجموعة من العلماء لم تأخذ الدراسة البلاغية برأيهم، بل إن الذي عليه جمهور البلاغيين وقبلته العقول وارتضته الأجيال جيلاً بعد جيل أن قولك «زيد أسد» تشبيه بليغ.

وفى هذا الصدد يقول إمام البلاغيين عبد القاهر «اعلم أن الوجه الذى يقتضيه القياس ويدل عليه كلام القاضي فى الوساطة أن لاتطلق الاستعارة

---

(١) انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ١٣٥-١٤١ والنكت فى إعجاز القرآن ص٨٥ ومابعدها والصاحبى لابن فارس تحقيق السيد صقر ص٣٣٤ والصناعتين لأبي هلال راجع ص ٢٢٥-٢٥٧ وسر الفصاحة لابن سنان تحقق على فودة ص١١٠ ومابعدها ودراسات بلاغية للدكتور بسيوني فيود ص١٠٥-١٢٣.

على نحو قولنا «زيد أسد» وهند بدر» ولكن تقول : تشبيه ، وإذا قال «هو أسد» لم تقل: استعار له اسم الأسد، ولكن تقول: «شبهه بالأسد»(١).

ثم شرع بعد ذلك في تجلية الفروق بين الاستعارة والتشبيه مبرزاً الحجج التي تجعلنا لانطلق الاستعارة على قولنا «زيد أسد، بل تحتم علينا أن نجعله من التشبيه، وليس هذا موطن ذكرها لأنها خارجة عن نطاق هذه الدراسة، ومن أراد الاستزادة فعليه مراجعة هذه القضية فى مظانها(٢).

وفى موطن آخر نجد ابن عميرة يعترض على البلاغيين فى بيانهم الفرق بين الاستعارة والتشبيه بقوله «ثم نهى بعد هذا أن يعزب عن الفهم أن المستعار ملبساً حرف التشبيه يخلع عنه ثوب الاستعارة، وقد قدمنا فى هذا مايظهر الفرق ويغني عن النهي، وأما مايقوله فى الموازنة بينهما فمذهب يفرح به صبيان الكتاب ويرتفع عنه أولو الألباب»(٣).

لعل أبرز فرق بين التشبيه والستعارة هو وجود الطرفين والوجه والأداة في التشبيه أو حذف الوجه أو الأداة أو حذفهما معاً مع وجود الطرفين، أما الاستعارة فهي كما يقال تشبيه حذف أحد طرفيه ووجهه وأداته. غير أن ابن عميرة يصر على جعل كل تشبيه حذفت منه الأداة استعارة وقد بينا فيما سبق بأن البلاغيين يعدونه تشبيهاً بليغاً لا استعارة.

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣٢١ ومابعدها.

(٢) انظر السابق ص ٣٢٠ - ٣٢٨ وراجع البلاغة التطبيقية ص ٢٢١ ومابعدها، ودراسات بلاغية للدكتور بسيوني فيود ص٩٩-١٣٢ والتصوير البيانى للدكتور محمد أبو موسي. مكتبة وهبة الطبعة الثانية ص ١٩٠ ومابعدها .

(٣) التنبيهات ص ٦٤.

ومن الدلائل على عدم معرفة ابن عميرة بعلوم البلاغة ، وقلة ارتياضه لهذا الميدان الفسيح قوله « ثم ذكر بعد هذا فائدة الاستعارة، وقد أمعنت النظر فى هذه الفائدة ومعنى قوله فما قدرت على فهمه ولا كدت »[١].

يشير ابن عميرة إلى قول الزملكانى فى التبيان «اعلم أن استعارة فائدتها أن توجب حصول ماسيقت له إيجاباً ذاتياً يستحيل مع ماذكرته أن يعرى عنها، ألا ترى أن الأسد لذاته يجب أن يكون شجاعاً ولم ينشأ له ذلك بسبب ذات أخرى»[٢].

ومع أن كلام الزملكاني واضح كل الوضوح فإننا سنلقى عليه مزيداً من الضوء ليزداد لك وضوحاً، فقول الزملكاني «حصول ماسيقت له» يقصد به الغرض الذى تساق من أجله الاستعارة مثل المبالغة في الشجاعة حين نستعير لفظ «الأسد» للرجل، أما قوله «إيجاباً ذاتياً أي يرجع إلى ذات نفسه وليس بسبب ذات أخرى ، فالشجاعة فى الأسد تتحقق فيه تحققاً ذاتياً لأنها جزء من مفهومه ولهذا يستحيل أن يعرى عنها.

والزملكاني فى كلامه السابق لم يخرج عما ذكره الشيخ عبد القاهر، بل بل كان ملخصاً لكلامه إلا أن كلام الشيخ كان أوضح وأبين من كلام الزملكاني، وعبارته أبهى وأحلى وأعذب حيث يقول «أما الاستعارة فسبب ماترى لها من المزية والفخامة أنك إذا قلت: «رأيت أسدا» كنت تلطفت لما أردت إثباته له من فرط الشجاعة، حتى جعلتها كالشئ الذى يجب له الثبوت والحصول، وكالأمر الذى نصب له دليل يقطع بوجوده، وذلك أنه إذا

---

(١) التنبيهات ص ٦٠.

(٢) التبيان ص ٤٢.

كان أسداً فواجب أن تكون له تلك الشجاعة العظيمة، وكالمستحيل أو الممتنع أن يعرى عنها. وإذا صرحت بالتشبيه فقلت «رأيت رجلاً كالأسد» كنت قد أثبتها إثبات الشئ يترجح بين أن يكون وبين أن لا يكون، ولم يكن من حديث الوجوب في شئ»(١).

ولايخفى وضوح كلام الزملكاني على أحد كما تبين لك، غير أن ابن عميرة يصرح بأنه لم يستطع فهمه مع أنه كان رحمه الله أقدر منا على فهم كلام العلماء وإدراك مرادهم، ولعل الذي دفعه إلى هذا القول هو إصراره على الإساءة إلى الزملكاني والحط من قدره ومنزلته.

ثم انتقل بعد ذلك يتعقب المؤلف فى بعض شواهد الاستعارة التى ذكرها معرضاً به ساخراً منه بقوله «قال: ومن بليغ الاستعارة «اليوم يومان» وأنشد البيتين:-

اليوم يومان مذغيبت عن بصرى	نفسي فداؤك ماذنبى فأعتذ
أمسى وأصبح لا ألقاك واحربا	لقد تأنق فى مكروهى القدر

وليس فيهما شئ أن تدعى له الاستعارة إلا جعله في الأول «اليوم يومان» ، وقد تنازع الشعراء هذا المعنى، ولم أر فيهم من قصر زمن الهرج تقصير هذا الشاعر، وجعل فى الثاني القدر متأنقاً فى المكروه، وهذا ليس خارجاً إلى جهة الاستحسان كل الخروج...»(٢).

وهذان البيتان من شواهد عبد القاهر، والاستعارة فى قوله «تأنق» حيث شبه الشاعر اختلاف صروف القدر وتنوعها عليه بالتأنق ثم استعار

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٧٢ ومابعدها.

(٢) التنبيهات ص ٦٠.

التأمق للتفنن والتنوع والاختلاف ثم اشتق من التأنق الفعل تأنق بمعنى تنوع واختلف على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

وأشاد ببيت ابن المعتز :

يناجيني الإخلاق من تحت مطله
فتختصم الأمال واليأس فى صدري

بقوله «إن مدح فباستحقاق إذ جعل الإخلاف مناجياً، والمطل كالظلمة وهما تحتها، وجعل مايجده فى صدره خصاماً بين الرجاء واليأس»(١).

أما تعليقه على قول الشاعر الآخر فلنا معه وقفة قصيرة نذكرها بعد ذكر البيتين وتعليقه عليهما:

لقد كننت فى قوم عليك أشحة بنفسك إلا أن ماطاح طائـــع
يودون لو خاطوا عليك جلودهم ولاتدفع الموت النفوس الشحائح

ليس فيه إلا أنهم ودوا وقد يود الإنسان ويتمنى المحال، وإذا قال القائل «أنت فى صدري» أتى بالمجاز حين جعل خيال الشئ الشئ، فأما إن قال « وددت أنك فى صدرى» فليس من المجاز، ولكن قوله «خاطوا عليك صدورهم» بديع ، إذ لم يكتف بأن جعلوه فى الصدور حتى يخيطوها عليه ضنانة به وحذراً عليه»(٢).

ليس من شك فى أن كلام ابن عميرة على قول القائل «أنت فى صدري» بأنه مجاز، أما إن قال القائل «وددت أنك في صدري» فليس من المجاز ف شئ ، كلام صحيح لا اعتراض عليه، لكن كلامه هذا أوهم بأن

---

(١) السابق نفس الموضع.

(٢) السابق ص ٦١.

الاستعارة فى الفعل«يودون» مع أنها فى قول الشاعر «خاطوا عليك خلودهم.

وقد اتفق ابن عميرة مع البلاغيين فى كون المجاز أبلغ من الحقيقة لكنه اختلف معهم فى بيان بلاغة المجاز بقوله «المجاز قد يكون أبلغ من الحقيقة، فإنما ذلك بما يفيد الكلام من الرونق الحاصل من التبديل وإبرازه فى هيئة تجمع إلى الدلالة حسن الخييل»(١).

ولن نقف عند هذا الرأى طويلاً لبيان فساده وإظهار عواهنه لأنه سبق لنا تفصيل ذلك عند حديثنا عن بلاغة الكناية، فما قلناه هناك يصلح لأن يكون رداً عليه فى هذه المسألة.

وقد قرر البيانيون أن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة لأنه كدعوى الشئ بالبينة والبرهان، فإذا قلت «رأيت أسدا» وأنت تريد رجلاً شجاعاً تراك قد اثبت له هذه الدعوى بدليلها وذلك إذا كان أسداً فواجب أن تكون له تلك الشجاعة العظيمة.

فالمجاز أبلغ من الحقيقة لأنه يقوم بتأكيد المعنى المراد وتقريره فى النفوس لما فيه من عرض الدعوى ببينة وبرهان، ولأن يقوم بتصوير المعنى المجازى المراد خير تصوير وأدقه، ولأنه يقوم بتأدية المعنى المجازى المراد بألفاظ أقل مما تؤدى به الحقيقة(٢).

ومن أراء ابن عميرة التى خالف فيها الزملكاني وعبد القاهر وعلماء البلاغة اعتراضه على أن التشبيه كلما ازداد خفاء ازادات الاستعارة حسناً بقوله (قال : كلما ازداد التشبيه خفاء ازدادت الاستعارة حسنا، أقول :

---

(١) السابق المرضع نفسه .

(٢) راجع دلائل الإعجاز ص ٧٢ والبلاغة التطبيقية ص ٢٦٩.

ذكر الخفاء هنا مضلل ومرهم أن إبعاده من الأفهام يعيره حسنا ويزيده قبولاً وليس كذلك بل الأمر بالضد كلما كان أوضح وأبين كان أجود وأحسن والبيت الذى أنشده من هذا القبيل:

أثمرت أغصان راحته لجناة الحسن عنابا

إنما حسن بأن قرب الشبه بوضع الأغصان بدل الأصابع، والعناب بدل الأطراف المخضوبة»[1]. وليس هذا اعتراضا على الزملكاني بل هو في حقيقته اعتراض على عبد القاهر ومن جاء بعده من البلاغيين لأن الزملكاني نقل كلام الشيخ عبد القاهر مع تغيير طفيف لايغير مراد عبد القاهر لأن السياق دال عليه حيث يقول عبد القاهر «واعلم أن من شأن الاستعارة أنك كلما زدت إرادتك التشبيه إخفاء ازدادت الاستعارة حسناً، حتى إنك تراها أغرب ماتكون إذا كان الكلام قد ألف تأليفاً إن أردت أن تفصح فيه بالتشبيه خرجت إلى شئ تعافه النفس، ويلفظه السمع، ومثال ذلك قول ابن المعتز:

أثمرت أغصان راحته لجناة الحسن عنابا

ألا ترى أنك لو حملت نفسك على أن تظهر التشبيه وتفصح به احتجت إلى أن تقول: «أثمرت أصابع يده التى هى كالأغصان لطالبى الحسن شبيه العناب من أطرافها المخضوبة «وهذا ما لايخفى غثاثته»[2] ونحن نعلم أن للشيخ عبد القاهر رأيا ملخصه أن بعض صور التشبيه لايجوز أن يتحول إلى استعارة، ولو رمت تحويله إلى الاستعارة ازداد

---

(١) التنبيهات ص ٦٢.

(٢) دلائل الإعجاز ص ٤٥٠ ومابعدها.

غموضا إلى أن ي صل إلى حد الألغاز والمعميات حيث يقول «فينبغى أن تعلم أنه ليس كل شئ يجئ مشبها به بكاف أو بإضافة «مثل» إليه، يجوز أن تسلط عليه الاستعارة وتنفذ حكمها فيه، حتى تنقله عن صاحبه وتدعيه للمشبه على حد قولك «أبديت نوراً» تريد علماً، و «سللت سيفاً صارماً» تريد رأياً نافذاً «وإنما يجوز ذلك إذا كان الشبه بين الشيئين مما يقرب مأخذه ويسهل متناوله ويكون في اللحال دليل عليه، وفى العرف شاهد له، حتى يمكن المخاطب إذا أطلقت له الاسم أن يعرف الغرض ويعلم ما أردت.

.... ، فأما اذا كان من الضرب الثاني الذى لاسبيل إلى معرفة المقصود من الشبه فيه إلا بعد ذكر الجمل التي يعقد بها التمثيل، فإن الاستعارة لاتدخله لأن وجه الشبه إذا كان غامضاً لم يجز أن تقتسر الاسم وتغصب عليه موضعه، وتنقله إلى غير ماهو أهله من غير أن يكون معك شاهد ينبئ عن الشبه ، ثم ذكر الشيخ قول الشاعر: فإنك كالليل الذى هو مدركى.

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم «الناس كإبل مئة لاتجد فيها راحلة» (١) .

ومن هنا ساغ لنا أن نجعل اعتراض ابن عميرة علي الزملكاني اعتراضا على عبد القاهر ومن جاء بعده من البلاغيين لأن اعتراض ابن عميرة لايدخل فيه هذا الصنف بدليل السياق، وبدليل الشاهد الذي ذكره الزملكاني.

وابن عميرة بهذا الاعتراض لايتفق مع الشيخ عبد القاهر والبلاغيين في أن التشبيه كلما ازداد خفاء ازدادت الاستعارة حسناً بل يذهب إلى

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٤٣ - ٢٤٦ بتصرف.

عكس ذلك بأن التشبيه كلما كان أوضح وأبين كان أجود وأحسن فهو بهذا لايخالف البلاغيين فقط بل نراه يخالف مافطرت عليه النفوس، وما ركز فى الطباع لأن الشئ إذ نيل بعد الكد والتعب وإطالة الروية والنظر وإعمال الذهن كان نيله أحلى وكانت النفوس به آنس، وبه أضن وأشغف، وعليه أحرص لأنه جاء بعد مكابدة وعناء ومشقة(١).

والاستعارة كما تعلم مبينة على التشبيه، وكلما كانت بعيدة غريبة بسبب خفاء التشبيه وغرابته إزدادت الاستعارة حسناً ، وبذلك تبلغ الاستعارة غاية شرفها وأعلى مراتبها لما لها من التفنن في فن القول وأودية البيان.

وحينئذ لايستطيع إدراكها إلا ذوو الأذهان الصافية، والعقول النافذة والطباع السليمة، والنفوس المستعدة لأن تعي الحكمة ، وتعرف فصل الخطاب كما قال الشيخ عبد القاهر(٢).

وهذا النوع يتحقق فى كل استعارة متفرعة عن التشبيه الغريب.

وقد قسم البلاغيون الاستعارة- وإن أفادوا ذلك من عبد القاهر- (٣) إلى قسمين: عامية مبتذلة يعرفها العامة كقولهم: رأيتا أسداً وقمراً، وخاصية غريبة وهى التي لايظفر بها الا من ارتفع عن طبقة العامة(٤).

وقد أرجع البلاغيون أسباب غرابتها إلى ثلاثة أمور :

---

(١) السابق ص ١٣٩ وراجع البلاغة التطبيقية ص١٠٥.

(٢) انظر أسرار البلاغة ص٦٦.

(٣) انظر السابق ص ٦٥ - ٦٩.

(٤) انظر الإيضاح ص ٤٢٢ ومابعدها وبغية الإيضاح ١٢٦/٣.

أولها: أن يكون الجامع عقليا محضاً، دقيقاً لطيفا كاستعارة الصراط للدين فى قوله تعالى: (إهدنا الصراط المستقيم)[1].

وكما في قول أبي تمام :

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة في السماء

فقد شبه الشاعر علو قدر الممدوح وارتقائه بالصعود بجامع الارتفاع في كل منهما، ثم استعار الصعود لعلو القدر، واشتق من الصعود الفعل بمعنى يرتقى علي سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، فالمستعار له معقول، والمستعار منه أمر محسوس، والجامع بينهما أمر عقلي محض ولهذا كانت الاستعارة خاصية بعيدة.

ثانيهماً: أن يكون الجامع غريباً لايدركه الا الخواص الذين أوتوا ذهنا ارتفعوا به عن طبقة العامة كما في قول طفيل الغنوي يصف نفسه بكثرة السفر:

وجعلت كوري فوق ناجية يقتات شحم سنامها الرحل

فقد شبه إذهاب الرحل شحم السنان بالاقتيات، والجامع هو النقص المترتب على كل منهما ثم استعير الاقتيات للإذهاب ، ثم اشتق منه الفعل يقتات بمعنى يذهب على سبيل الاستعارة التبعية، ولعلك تلحظ أن الشاعر قد حالفه التوفيق فيما عناه لأن الشحم مما يصلح للقوت، وأن الرحل دائماً ينقص منه ويذيبه ، فالغرابة في وجه الشبه آتية من جهة أن فيه تخييلاً بأنه يجري على الحقيقة.

---

(١) الفاتحة الآية ٦.

وقول سوار بن المضرب:

بعرض تنوفة للريح فيها نسيم لا يروع الترب وان

الشاعر يصف النسيم بالوني وأنه لايثير التراب، والشاهد فى قوله «يروع» فقد شبه إثارة التراب بالروع بجامع التحريك في كل منهما، ثم استعار الروع للإثارة ثم اشتق من الروع الفعل «يروع» بمعنى يثير على سبيل الاستعارة التبعية والقرينة هي إيقاع الروع على الترب.

فالجامع كما ترى خفي غريب لايدركه إلا الخاصة مما ارتفعوا عن طبقة العامة ولذلك كانت الاستعارة غريبة نادرة.

ثالثهما: أن تكون الاستعارة غريبة بسبب غرابة وندرة التشبيه وذلك بأن يكون الطرفان متباعدين بحيث لايخطر المشبه به على البال عند خطور المشبه كما في قول يزيد بن مسلمة يصف فرسه بأنه مؤدب، وأنه إذا نزل عنه وألقى عنانه فى قربوس سرجه وقف مكانه إلى أن يعود إليه:

عودته فيما أزور حبائبي إهماله وكذاك كل مخاطر

وإذا حتبى قربوسه لعنانه علك الشكيم إلى انصراف الزائر

فقد شبه الشاعر جمع القربوس وجانبي فم الفرس بالعنان ممتداً من الركبتين إلى الظهر بجامع إحاطة شئ لشيئين ضالماً أحدهما إلى الآخر ، ثم استعار الاحتباء لجمع القربوس وجانبي فم الفرس بالعنان، ثم اشتق من الاحتباء «احتبى» بمعنى جمع قربوسه وجانبي فمه بالعنان على سبيل الاستعارة التبعية.

ووجه كون الاستعارة غريبة أن المشبه به لا يخطر على البال عند ذكر المشبه لأن أحدهما من وادي القعود، والآخر من وادي الركوب ، فكانت الاستعارة غريبة لغرابة التشبيه(١).

والغرابة ههنا على مانحو مايقول الشيخ عبد القاهر «فى الشبه نفسه، وفى أن استدرك أن هيئة العنان في موقعة من قربوس السرج كالهيئة فى موضع الثوب من ركبة المحتبي»(٢).

ومن اعتراضات ابن عميرة على البلاغيين قوله « ثم قال بعد هذا مامعناه: إن مايأتى من جنس هذا الكلام فله مراتب يقع فيها التفاوت، وأعطى مثالاً من البيتين وهما قول الشاعر:

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح

وقول الآخر : سالت عليه شعاب الحى حين دعا أنصاره بوجوه كالدنانير فإنهما ذهبا مذهباً واحداً تتأتى المقايسة بينهما فيه، ويظهر الشفوف لأحدهما على الآخر، وما أورده حسن بين إلا أنه إستحسن من البيت الثانى وهو قوله «سالت عليه شعاب الحي» أن عدي الفعل بعلى والباء، والحاضرون لنصرته المحضرون إليها لايحسن أن يقال سالوا عليه بل ذلك أليق بالمحيطين به من أعدائه فكيف أعجبته هذه التعدية، ولعلها لو كانت بإلى كانت أجود »(٣).

---

(١) انظر البلاغة التطبيقية ص ١٥٤-١٦٣ والإيضاح ٤٢٣ ومابعدها وبغية الإيضاح ١٢٦/٣ - ١٢٨ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٧٥.

(٣) التنبيهات ص ٦٣.

لايخفى في أن ابن عميرة يتفق مع البلاغيين فى استحسان الاستعارة في البيتين السابقين مع ما للبيت الثانى من الحسن واللطف والمزية على البيت الأول، إلا أنه يستهجن تذوق البلاغيين ويعترض على استحسانهم لتعدية الفعل «سالت» بالباء وعلى، ويرى أنها لو كانت بإلى لكانت أجود.

وحين نقترب من النص نتابع همساته ونمناته وايحاءاته نرى وجاهة ماذهب إليه البلاغيون وبعد ما ذهب إليه ابن عميرة لكونه بمنأى عن السياق والمقام لأن الشاعر أراد وصف ممدوحه بأنه «مطاع فى الحي وأنهم يسرعون إلى نصرته، وأنه لايدعوهم لحرب، أو نازل خطب، إلا أتوه وكثروا عليه وازدحموا حواليه حتى تجدهم كالسيول تجئ من ههنا وههنا، وتنصب من هذا المسيل وذلك حتى يغص بها الوادى ويطفح منها [1] «وإنما يكون هذا من الثقة بشجاعتهم، والإدلال بقوتهم، والزهو برعيمهم، ولو كانوا حائفين أو كارهين لجاءوا متثاقلين متباطئين بوجوه عابسة ترهقها غبرة الخوف وتعلوها ظلمة الكآبة» [2].

وموطن استشهاد البلاغيين بهذا البيت في قوله «سالت عليه شعاب الحى» حيث شبه الشاعر السير السريع السلس بسيلان الماء فى الشعاب بجامع قطع المسافة بسرعة ولين وسلامة، ثم استعار السيلان للسير ثم اشتق من السيلان الفعل «سالت» بمعنى سارت مسرعة في لين وسلاسة على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية.

---

(١) دلائل الإعجاز ص ٧٥.

(٢) البلاغة التطبيقية ص ١٦٥.

وقد أضفى الشاعر على هذه الاستعارة من الصنعة والتجويد والتنميق ماجعلها تخرج في حلة زاهية قشيبة، وتكتسب من الدقة واللطف مالا مزيد عليه ، حيث أسند الفعل «سالت» إلى الشعاب دون الأنصار، وقد كان حق هذا الفعل أن يسند إلى الأنصار لكن الشاعر أسنده إلى المكان- ففي هذا التعبير مجاز عقلى علاقته المكانية- فأفاد بهذا الإسناد أن الشعاب قد امتلأت بالأنصار وأن المكان قد ازدحم بهم لكثرة عددهم حتى يخيل إليك أن الشعاب هي التى تسير لا أنهم هم الذين يسيرون، ثم لم يكتف الشاعر بهذا بل أدخل الوجوه فى السير مع تعدية الفعل إليها بالباء، ثم عدى الفعل «سالت» إلى ضمير الممدوح «بعلى» فأكد مقصوده من كونه مطاعاً فى الحي[1] لأن «على بدلالته على الاستعلاء يدل على استعلاء الشعاب وتدفقها بالأنصار حتى لكأنها قد استعلت على الممدوح وأحاطت به من جميع الجوانب، أما حرف الجر «إلى» فهو بدلالته على الانتهاء يدزل على سيل الشعاب بالأنصار قد انتهى إلى الممدوح ووصل إليه.

فتعديه الفعل «سالت» «بعلى» أجود وأليق بالسياق من تعديته «بإلى» لأن حرف الانتهاء «إلى» لا يستطيع أن يشئ بالمعانى التى يومض بها حرف الاستعلاء على نحو ماسبق بيانه.

أرأيت كيف كان رأي البلاغيين وجيهاً وصواباً لأنهم استطاعوا بذوقهم أن يدركوا ماتفصح به التراكيب من المعانى والأغراض التى يقتضيها السياق ويتطلبها المقام؟

---

(١) انظر البلاغة التطبيقية ص ١٦٥ ومابعدها.

وهل يبقى بعد ذلك وجه لقبول ماذهب إليه ابن عميرة، ورفض ما أجمع البلاغيون سلفاً وخلفاً على قبوله؟

ولست بدعاً في تخطئة رأي ابن عميرة فى تعدية الفعل «سالت» بإلى، وبيان بعده عن الصواب، فقد اعترض عليه بعض علمائنا القدماء، ففي النسخة المخطوطة من كتاب التنبيهات حاشية كتبها بخطه ابن خطيب دارسا، و هذا نصها «تجني المعترض هنا واضح لايحتاج إلى كير تأمل، فإن الوصف بالسيلان الذي يأتى ساعيا لشدة اهتمامه بأمر داعيه من وصف المحيطين، فإن العدو قد يصدق على المعادى من غير سعي، وهذا واضح، كتبه محمد بن أحمد خطيب دارياً مترحماً والله أعلم»[1].

---

(١) التنبيهات مقدمة المحقق ص ٤٠.

المبحث الثالث

فى الاستعارة التمثيلية

من اعتراضات ابن عميرة على مقررات البلاغيين اعتراضه على التمثيل أو الاستعارة التمثيلية ورفضه لهذا الفن بقوله «ثم قال القسم الثالث وهو التمثيل، قال: وهو إنما يكون مجازاً إذا جاء على حد الاستعارة.

وهذا قسم لامعنى له ولازيادة فيه على ماتقدم، وإذا قيل فى المتحير إنه يقدم رجلا ويؤخر أخرى، فقد يكون وادعاً بمنزله وتخبر عنه أنه كذلك، ولارجل هناك تقدم أو تؤخر، وإن صورنا الوادع بصورة المقبل المدبر وجعلنا أحدهما الآخر، وهكذا القول فى سائر الأمثلة، فيرجع إلى مامضى من غير فرق، ويكون الإتيان به إما عن إكثار فى غير موضعه، أو لسوء تمييز من صاحبه»(١).

يتضح لنا من خلال هذا النص- وغيره - أن ابن عميرة يكره كثرة التقسيمات وبعد ذلك من الهذيان، وضرباً من اللغو لاطائل تحته، ولذلك يرى أن الاستعارة ضرب واحد على الرغم من تباين صورها واختلاف طرائقها. ويرى أن الشواهد المذكورة فى هذا الباب هى من قبيل مامضى من غير فرق، ويكون هذا التقسيم الذى ذكره الزملكاني والبلاغيون إما عن إكثار فى غير موضعه أو لسوء تمييز من صاحبه. وقد نعى الشيخ عبد القاهر على أصحاب هذا الرأي ووصفهم بقصور الهمة قائلا «وأول ذلك

---

(١) التنبيهات ص٦٢ - ٦٣.

وأولاه وأحقه بأن يستوفيه النظر ويتقصاه، القول على «التشبيه» و«الاستعارة» فإن هذه أصول كبيرة، كأن جل محاسن الكلام- إن لم نقل كلها- متفرعة عنها، وراجعة إليها، وكأنها أقطاب تدور عليها المعانى في متصرفاتها، وأقطار تحيط بها من جهاتها، ولايقنع طالب التحقيق أن يقتصر فيها على أمثلة تذكر، ونظائر تعد، نحو أن يقال «الاستعارة مثل قولهم» الفكرة مخ العمل «وقوله:

وعرى أفراس الصبا ورواحله

وقوله «السفر ميزان القوم».. ، ويؤتى بأمثلة إذا حقق النظر كالأشياء يجمعها الاسم الأعم، وينفرد كل منها بخاصة، من لم يقف عليها كان قصير الهمة في طلب الحقائق، ضعيف المنة فى المبحث عن الدقائق، قليل التوق إلى معرفة اللطائف، يرضى بالجمل والظواهر.. (١).

---

(١) أسرار البلاغة ص ٢٧ - ٢٨.

المبحث الرابع

فى المجاز الاسنادى أو المجاز العقلى

من آراء ابن عميرة التي خالف فيها البلاغيين اعتراضه على المجاز العقلي حيث رفض هذا النوع من المجاز، ويرى أنه لافرق بينه وبين الكناية بقوله «ثم ذكر الفن الرابع: المجاز الإسنادى، وقال إنه داخل على النسبة لا على ذوات الكلم المفردة ومثل بقولهم «نهارك صائم» و «ليلك قائم» ، والتجوز قال: ليس من جهة الدلالة الإفرادية، ولكن من جهة إجرائهما خبرين عن الليل والنهار، وأنشد بيت المتنبي: بدت قمراً ومالت خوط بان.

وهذا وإن قاله بعض من يعتقد فيه فما صنع شيئاً ولاقال صواباً، ولايعقل المجاز إلا مستعملاً فى كلام، أو مأتياً به في عرض قول، نعم عند التعليم بالمثال قد يجاء باللفظ المفرد، فيقال كما تقول للشجاع» هو أسد» وللبليد «هو حمار»، والنحوي يقول: إعراب الفاعل الرفع، والمفعول النصب، فكان يلزم على هذا إذا قيل: «ضرب زيد عمراً» أن يقال في ذلك: الإعراب الإفرادي. وفي هذا التركيبي أو الإسنادي والأعراب حقيقة إنما هو في هذا، وانظر مامثل به في هذا الإسنادي، وفي الإفرادي قلبه تجد الأمثلة واحدة، وأي فرق بين أن ينسب المجد إلى بردي الممدوح، والشرف إلى قبته، وأن ينسب الصوم إلى نهاره، والقيام إلى ليله... »[1].

ولايخفى ما في هذا الكلام من الفساد والمغالطة والخلط لبعض الفنون البلاغية التي فرغ البلاغيون من تحديدها وتمييز بعضها عن بعض

---

(١) التنبيهات ص ١٣٢ - ١٣٣.

وبيان وجوده اختلافها بما لايدع لإنسان مهما كان قدره، إذا كان منصفاً أن يقول كلاماً يمكن أن يلتفت إليه،

ولن أقف مع هذا النص لأناقش مافيه من الخلط والتمويه فهذا مالاسبيل إليه لوضوحه، وحسبي أن أناقش بعض القضايا على نحو مايتضح لك في السطور القادمة مستمداً من الله العون والتوفيق.

وقبل أن أبدأ بمناقشة ابن عميرة أود أن زشير إلى أن علماء البلاغة قد أشادوا بالمجاز العقلي ونوهوا ببلاغته وأهميته في بناء العمل الأدبي، فعبد القاهر يجعله كنزاً من كنوز البلاغة بقوله «وهذا الضرب من المجاز على حدته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان، والاتساع في طرائق البيان»(١).

وقد أشار علماؤنا القدماء إلى بعض صور المجاز العقلي على اختلاف مناهجهم وتنوع بيئاتهم الثقافية التي ينتمون إليها من لغويين ومفسرين وبلاغيين، (٢) لكنهم لم يقفوا الوقفة الطويلة التي وقفها عبد القاهر ليميز الفرق بين المجاز اللغوى والمجاز العقلى، وكان منها قوله «أنت ترى مجازاً في هذا كله، ولكن لا فى ذوات الكلم المفردة وأنفس الألفاظ، ولكن في أحكام أجريت عليها، أفلا ترى أنك لم تتجوز في قولك «نهارك صائم وليلك قائم» في نفس «صائم» و «قائم» ولكن في أن أجريتهما خبرين على الليل والنهار، وكذلك ليس المجاز في الآية في لفظة «ربحت» نفسها ولكن في إسنادها إلى التجارة. وهكذا الحكم في قوله «سقتها خروق» ليس التجور في نفس « سقتها » ولكن في أن أسندها

---

(١) الدلائل ص ٢٩٥.

(٢) راجع خصائص التراكيب الطبعة الثالثة ص ١٠٩ ومابعدها.

إلى الخروق. أفلا ترى أنك لا ترى شيئاً منها إلا وقد أريد به معناه الذي وضع له على وجهه وحقيقته، فلم يرد بصائم غير الصوم، ولا بقائم غير القيام، ولابربحت غير الربح، ولابسقت غير السقي.. »[1].

بهذا البيان الشافي استطاع عبد القاهر أن يحدد الفرق بين المجازين اللغوي والعقلي، لأن طريق التجوز في المجاز اللغوى هو اللغة، فعندما تسمع قوله تعالى «واتبعوا النور الذى أنزل معه»[2] تدرك دون مشقة أن المراد بالنور هو الكتاب الكريم لا النور الحسى كنور المصباح أو غيره لأن الذي أنزل معه هو القرآن الكريم وليس النور الحسي، ففى الآية الكريمة مجاز لغوي استعير فيه النور للكتاب بجامع الهداية في كل منهما، «فالتجور هنا واقع في الكلمة المفردة كما ترى، وحكمنا على أن هذه الكلمة المفردة بأنها مجاز حكم يعتمد على العمل اللغوي لأن المتكلم جاز بالكلمة ونقلها من معناها الأصلي الذي استعملت له في أصل اللغة إلى المعني المجازي الجديد الذي نقلت إليه لوجود علاقة بين المعنى الأصلي والمعني المجازي.

أما طريق التجوز فى المجاز العقلي فهو العقل وليس اللغة، فأنت حينما تسمع قول القائل «ليله قائم ونهاره صائم» تجد الألفاظ فى هذا التعبير مستعملة في حقائقها الموضوعة لها في أصل اللغة، أي لاتجوز فيها، بل تجد التجوز في إسناد الصوم إلى اليوم، والقيام إلى الليل، ولما كان التجوز في الإسناد كان ذلك عملاً عقلياً من صنع المتكلم، وليس للغة فيه مدخل، لأنها لم تحدد للفعل فاعلاً معيناً بحيث إذا أسند إليه كان الإسناد حقيقياً، وإذا تعداه كان مجازياً.

---

(١) الدلائل ص ٢٩٤.

(٢) الأعراف الآية ١٥٧.

فالفرق إذن يكمن فى أمرين :

أ- طريق التجوز في المجاز اللغوي هو اللغة ، أما المجاز العقلي فطريقة العقل والفكر.

ب- المجاز اللغوى في اللفظ، أما المجاز العقلي ففي الإسناد (١).

ثم إن ابن عميرة لايرى فرقاً بين المجاز الإسنادى «العقلي» وبين الكناية ، بل يجعل المجاز العقلي من الكناية مدعياً أن الأمثلة واحدة حيث يقول «وانظر مامثل به في هذا الإسنادي وفى الإفرادي قلبه تجد الأمثلة واحدة ، وأي فرق بين أن ينسب المجد إلى بردي الممدوح، والشرف إلى قبته، وأن ينسب الصوم إلى نهاره والقيام إلى ليله (٢).

ليس من شك في أن هناك فرقاً كبيراً وواضحاً بين الكناية والمجاز الإسنادي «العقلى» كما هو مقرر لدى علماء البلاغة.

فالكناية في اصطلاح البلاغيين : لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلي (٣)، فإذا قلت: فلان الكرم بين برديه «كنت قد أثبت الكرم لهذا الممدوح وتركت التصريح باثبات الكرم له ، وكنيت عن ذلك بكون الكرم بين برديه اللذين يلبسهما ، واذا كان الكرم بين برديه فهذا يقتضى أنه كريم جواد.

---

(١) من أسرار التركيب البلاغي للدكتور السيد عبد الفتاح حجاب ص٣٢ ومابعدها بتصرف.

(٢) التنبيهات ص ١٣٣.

(٣) انظر الإيضاح ص ٤٥٦ والمطول ص ٤٠٧ وشروح التلخيص ١٣٧/٤ وبغية الإيضاح ١٧٣/٣.

أما المجاز العقلي فقد عرفه البلاغيون بقولهم «إسناد الفعل أو ما في معناه إلى ملابس له غير ماهو له بتأول»[١] كما في قولهم «نهاره صائم وليله قائم» حيث أسند ما في الفعل «وهو الاسم المشتق» «صائم وقائم» إلى النهار والليل مع أن النهار ليس فاعل الصوم على الحقيقة، كما أن الليل ليس فاعل القيام، وإنما هما زمانان فقط، ولهذه العلاقة بين الفاعل الحقيقي والفاعل والمجازي صح إسناد الفعل إلى الزمن لاستحالة وقوع الفعل منه، وأصل التعبير فى قولهم «نهاره صائم وليله قائم» صام الرجل نهاره وقام ليله، وإنما عدل عن ذلك للمبالغة في كثرة الصيام والقيام حتى كأن الصيام والقيام قد اتصف بهما الزمان الذي يقعان فيه، فيخيل إليك أن النار يصوم والليل يقوم.

ففي الكناية ينتقل الذهن من المعنى المباشر للفظ إلى المعنى الكنائي المراد، أما المجاز العقلي فلا دخل للغة فيه ، وإنما يكون التجوز فيه عن طريق العقل بإسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ماحقه أن يسند إليه لوجود ملابسة بين الفاعل الحقيقى والفاعل المجازي، وللفعل كما يقول البلاغيون ملابسات شتي ، فقد يلابس الفاعل أو المفعول به أو الزمان أو المكان أو المصدر أو السبب إلى غير ذلك[٢] وبهذا يتضح لك الفرق بين الكناية والمجاز العقلي ، غير أن ابن عميرة بادعائه أنه لايجد فرقاً بين أن ينسب المجد إلى بردي الممدوح والشرف إلى قبته، وبين أن ينسب الصوم إلى

---

(١) انظر : الإيضاح ص ٩٨ والمطول ص ٥٧ وشروح التلخيص ١/ ٢٣١ ومابعدها وبغية الإيضاح ١/ ٥٦.

(٢) انظر الإيضاح ص٩٨ وشروح التلخيص ١/ ٢٣٤ ومابعدها والمطول ص ٥٧ وبغية الإيضاح ١/ ٥٦ وخصائص التراكيب الطبعة الثالثة ص ٦٩.

نهاره والليل إلى قيامه، يؤكد بكلامه هذا ماقررناه من قبل باختلاط المسائل البلاغية فى ذهنه، لأن المراد من قولهم «فلان المجد بين برديه» نسبة المجد إليه عن طريق نسبتها إلى مايتصل به، وهذا مسلك غير مسلك إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ماهو له، وباب غير بابه، أما قولهم «نهاره صائم وليلة قائم» فليس المراد منه إثبات أنه صائم أو قائم- على للنحو الذى تأتى لنا إثباته عن طريق الكناية- لأن ذلك أمر واضح- بل المراد المبالغة في كثرة الصيام والقيام، ثم إن النسبة التى صرح ابن عميرة بوجودها فى هذا الكلام بقوله «وأن ينسب الصوم إلى نهاره والقيام إلى ليله» ليس لها وجود بل نجد المتكلم قد تصرف في العبارة عن طريق التجوز في الاسناد حيث لم يسند ما في معنى الفعل «صائم وقائم» إلى فاعله الحقيقى بل أسنده إلى النهار والليل مع أن النهار ليس فاعل الصوم على الحقيقة، وكذلك الليل ليس فاعل القيام، ولما كانت هنا ملابسة بينهما صح معها إسناد الفعل أو ما في معناه الى غير ماهو له وهي أن النهار والليل هما الزمن الذي يقع فيه الصيام والقيام، إضافة إلى وجود قرينة مانعة وهى استحالة وقوع الفعل من الليل والنهار.

ألست معى في أنك لاتجد هذه النسبة التي نص ابن عميرة على وجودها في أمثلة المجاز العقلي كما كنت تجدها وتراها بوضوح فى أمثلة الكناية عن النسبة؟

بعد هذه الوقفة الطويلة التي بينا من خلالها فساد زعم ابن عميرة في أنه لايجد فرقاً بين المجاز الإسنادي والكناية، وبينا أيضا قصور باعه وقلة بضاعته من علوم البلاغة، ننتقل إلى مناقشته في رفضه لشاهد من شواهد البلاغيين فى المجاز العقلى بقوله «واستشهد أيضا ببيت الخنساء.

ترتع ماغفلت حتى إذا ادكرت فإنما هي إقبال وإدبـــــار

وجعل ذلك من المجاز الإسنادي إذ أخبرت بالإقبال والإدبار عمن كان ذلك منه، قال: فكأن الناقة بجملتها إقبال وإدبار حتى كأنها تجسمت منهما، وهذه حماقة يخشى عدواها العقلاء، وبرد لايكسر منه الاصطلاء ولو إتجه لها أن تقول فإنما هي مقبلة ومدبرة أولها إقبال وإدبار لأتت بالكلام على وجهه وخيلت المعنى المقصود من محاكاتها نفسها ، فهذه الفاقدة لوالدها التي ربما غفلت فأقبلت على الرعي، فإذا ذكرت الولد غشيها الجزع وخامرها الوله فتركت المرعى وعراها مايعرو المختلط البال، المهيج البلبال من حال لاقرار عليها، وحركات لاروية معها، ولو قدرنا أن إنساناً رأى هذه الناقة الوالهة بتلك الحال فقال: هذه الناقة التي ترون هي ذات جسم ركب من إقبال وإدبار لكان أهلا لأن يستبرد منزعه، بل أن يصفع أخدعه، وقد مر لك أن المجاز هو أن يجعل الشئ غيره ، ولابد من نسبة ظاهرة توجب هذا الجعل كما يقال أسد وحمار وقمر وغصن، فهذه الشاعرة جعلت على رأيه الناقة الإقبال كأنه شخص قد عرف منه الحزن أو معنى إذا تصور وحده يخيله وليس كذلك، إنما يخيل الإقبال والإدبار ما أرادت إذا كانا فى الناقة وإذا كانا فيها فهى مقبلة لا إقبال، فقطع الزمن بهذا النوع من البحث أفن رأي وسفاهة نفس»[1] لعلك تلحظ أن ابن عميرة قد بدأ اعتراضه بعبارات نابية وصف بها الزملكانى وتهكم به وسخر منه، وهذا خلق مشيق مرفوض لاينبغى أن يصدر عن عالم لأنه لا يليق بأخلاق العلماء.

---

(١) التنبيهات ص ١٣٣- ١٣٤.

وهذا الكلام الذى وصف به ابن عميرة الزملكاني لم يكن متجنياً فيه فقط على الزملكاني بل كان متجنياً فيه على البلاغيين وفى مقدمتهم الشيخ عبد القاهر لأن كلام الزملكانى فى حقيقته تلخيص لكلام الشيخ عبد القاهر.

ولو قدر لك قراءة تراثنا البلاغي فإنك لن تجد عالماً من العلماء قد اعترض على هؤلاء الأعلام في هذه المسألة أو في غيرها، أو وصفهم بمثل هذا الوصف الذى لايليق بالأدب، بل إنني أكاد أجزم أن ابن عميرة لم يهدف فى ردوده على الزملكاني إلا لإظهار الزراية به والحط من شأنه ومنزلته، وإبراز تفوقه في النقد، وهذا كما نعلم سلوك لايرتضيه علماؤنا الأجلاء الذين يتطلعون إلى الحقيقة ويبحثون عن الحق والصواب.

وقد ذهب كثير من البلاغيين إلى أن قول الخنساء:

ترتع ماغفلت حتى إذا ادكرت فإنما هي إقبال وإدبـــار

من المجاز العقلي[1] ، والشاهد في قولها «فإنما هي إقبال وإدبار «فقد أسندت الإقبال والإدبار إلى الناقة، وهو من باب وصف الفاعل أو المفعول بالمصدر مثل «رجل عدل» كما نص على ذلك سعد الدين التفتازاني فى المطول[2]. وهذا الإسناد أفاد أن هذه الناقة حين ذكرت ولدها ارتاعت من شدة ماتجد، واشتد بها الوجد وأخذت تقبل وتدبر، وكأنها لفرط إقبالها وإدبارها صارت إقبالاً وادباراً ، وللشيخ عبد القاهر في هذا الصدد كلام رائع لامزيد عليه حيث يقول «وذاك أنها لم ترد بالإقبال والإدبار غير

---

(١) الدلائل ص ٣٠٠ ومابعدها والتبيان ص ١٠٧ والمطول ص ٥٦.

(٢) ٥٦.

معناهما، فتكون قد تجوزت في نفس الكلمة في أن جعلتها لكثرة ماتقبل وتدبر، ولغلبة ذاك عليها واتصاله منها، وأنه لم يكن لها حال غيرهما، كأنهما تجسمت من الاقبال والإدبار»[١].

ويرى الشيخ عبد القاهر أننا إذا ذهبنا إلى أن في الكلام مضافاً محذوفاً تقديره «فإنما هي ذات إقبال وإدبار» أو على تأويل المصدر باسم الفاعل أي فإنما هى مقبلة ومدبرة أفسدنا الشعر على أنفسنا، وخرجنا إلى شئ مغسول وإلى كلام عامى مرذول، وكان سبيلنا سبيل من يزعم مثلا في بيت المتنبى:

بدت قمراً ومالت خوط بان وفاحت عنبراً ورنت غزالا

أنه في تقدير محذوف، وأن معناه الآن كالمعنى إذا قلت «بدت مثل قمر، ومالت مثل خوط بان، وفاحت مثل عنبر، ورنت مثل غزال «في أنا نخرج إلى الغثاثة وإلى شئ يعزل البلاغة عن سلطانها، ويخفض من شأنها، ويصد أو جهنا عن محاسنها، ويسد باب المعرفة بها وبلطائفها علينا»[٢] بل إن الشيخ يرفض هذا التقدير لأنه يفسد الشعر، «ويحتم أخذ المعنى كما يعطيه هذا البناء الذي بنى عليه الشعر، والذى يفيد أن الناقة كأنها صارت بجملتها إقبالاً وإدباراً حتى كأنها تجسمت منهما، ولو أرادت الشاعرة خلاف هذا المعنى لقالت: فإنما هي ذات إقبال وإدبار، أما أن تكون الشاعرة قد بنت معناها هذا البناء الشعري المصور، ثم بعد ذلك ننزله بالتقدير إلى هذا المعنى المغسول فذلك مما لامساغ له عند من كان صحيح الذوق صحيح المعرفة»[٣].

---

(١) الدلائل ص ٣٠٠ ومابعدها.

(٢) السابق ص ٣٠٢.

(٣) خصائص التراكيب ص ١٢٥.

وهذا الكلام الذي وصف فيه ابن عميرة الزملكاني وأساء فيه أيما إساءة بقوله «وهذه حماقة يخشى عدواها العقلاء، وبرد لايكسر منه الاصطلاء.. ولكان أهلا لأن يستبرد منزعه، بل أن يصفح أخدعه» هو كلام الشيخ عبد القاهر الذى نقلناه فيما سبق، ولهذا ترانى لا إبالغ إن قلت: إن كلام الشيخ عبد القاهر هنا مستمد من كلام سيبويه وابن جني وغيرهما من علمائنا السابقين، يقول سيبويه «ومن ذلك قول الخنساء:

ترتع مارتعت حتى إذا ادكرت فإنما هي إقبال وإدبار

فجعلها الإقبال والإدبار، فجاز على سعة الكلام كقولك «نهارك صائم وليلك قائم»[1].

ويقول ابن جني «وأقوى التأويلين في قولها: فإنما هي إقبال وإدبار أن يكون من هذا، أي كأنها مخلوقة من الإقبال والإدبار، لا على أن يكون من باب حذف المضاف أي ذات إقبال وذات إدبار»[2].

بل إن بيت الخنساء هذا نجده يتردد في كتب العلماء على تنوع بيئاتهم الثقافية من لغويين ونحويين ومفسرين وبلاغيين بدءاً من سيبويه والفراء وابن جني ووصولاً إلى عبد القاهر والزمخشري وانتهاء بعلماء البلاغة على أنه من شواهد المجاز العقلى[3].

---

(١) الكتاب لسيبويه تحقيق عبد السلام هارون ٣٣٧/١.

(٢) الخصائص ٢٠٣/٢.

(٣) أنظر معانى القرآن ١٤/١ ومابعدها ، ٧٣/٢ والكشاف ٣٣٠/١ والتبيان ١٠٧ والمطول ص ٥٦ وراجع أثر النحاة في البحث البلاغي للدكتور عبد القادر حسين ص١٠١.

بعد هذا الإجماع من العلماء على أن بيت الخنساء من المجاز العقلي هل يبقى لكلام ابن عميرة وجه من الصحة والقبول حين يصف هؤلاء الأعلام بقوله «وهذه حماقة يخشى عدواها العقلاء، وبرد لايكسر منه الاصطلاء»؟، بل إننا نراه قد تباغض وأساء إساءة لاتغتفر له بقوله «ولو قدرنا أن إنسانا رأى هذه الناقة.. لكان أهلاً لأن يستبرد منزعه بل أن يصفع أخدعه» فهذه كما ترى حماقة مابعدها حماقة، وسفاهة مابعدها سفاهة، وداء وبيل وقانا الله شره.

وحين نتأمل قوله «ولو إتجه لها أن تقول: فإنما هي مقلبة ومدبرة أولها إقبال وإدبار لأتت بالكلام على وجهه وخيلت المعنى من محاكاتها نفسها، فهذه الفاقدة لولدها التى ربما غفلت فأقبلت على الرعي فإذا ذكرت الولد غشيها الجزع وخامرها الوله فتركت المرعى وعراها مايعرو المختلط البال المهيج البلبال من حال لاقرار عليها، وحركات لا روية معها [١].

لايخفى مافيه من الفساد لأننا حين نلجأ إلى تقدير محذوف كما قدره هو نكون قد أفسدنا الشعر وخرجنا إلى كلام غث مرذول كما صرح به عبد القاهر، وأفقدنا الشعر توهجه وبهاءه، لأن الخنساء بنت كلامها على المبالغة لأنها أرادت تمثيل شدة لوعتها وشدة حزنها لفقد أخيها، ولهذا عمدت إلى تشبيه حالها بحال تلك الناقة التى فقدت وليدها حتى إذا ذكرته فإنما هى إقبال وإدبار، وهذا الاسناد أفاد أن هذه الناقة حين ذكرت ولدها ارتاعت من شدة ماتجد، واشتد بها الوجد، وأخذت تقبل وتدبر، وكأنها لفرط إقبالها وإدبار صارت إقبالاً وإدباراً [٢] و «أنه لم يكن لها حال غيرهما كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار» [٣].

---

(١) التنبيهات ص١٣٣ ومابعدها.
(٢) خصائص التراكيب ص ١٢٤.
(٣) الدلائل ص ٣٠٠ ومابعدها.

أما حين نقدر في الكلام محذوفاً «ذات إقبال وإدبار ، أو هي مقبلة ومدبرة، فإننا لانجد في الكلام تلك المبالغة التي كنا نجدها فيه لأن قوله «مقبلة ومدبرة ليس الا مجرد وصف للناقة بأنها مقبلة ومدبرة، وهو وصف يخلو من المبالغة التى أرادت الشاعرة إبرازها والتأكيد عليها».

أرأيت كيف أننا حين نلجأ إلى تقدير محذوف في الكلام قد أفسدنا الشعر وأفقدناه توهجه وبهاءه، وخرجنا إلى كلام غث مرذول لايقبله صحيح الفطرة سليم الذوق.

المبحث الخامس

فى التشبيه

من اعتراضات ابن عميرة التي لم يخالف فيها الزملكاني وحده بل خالف فيها جمهور البلاغيين اعتراضه على بعض فوائد التشبيه وأسباب تأثيره فى النفوس بقوله «قال- يعني الزملكاني - ومن فوائد التشبيه أن ينقلك من شئ تعرفه إلى شئ أنت به أعرف» ، وهذا لهو، فشأن الأقيسة الشعرية فما فوقها أن يكون الانتقال بها من الأعرف إلى الأخفى، وبيتا البحتري اللذان أنشدهما وهما:

دان على أيدي العفاة وشاسع عن كل ند في الورى وضريب
كالبدر أفرط فى العلو وضوءه للعصبة السارين جد قريب

إنما أجرى الأول مجرى نتيجة، كما يقول الفقيه «النبيذ محرم»، و «العارية مضمونة» ثم يستدل بعد ذلك بحجة من ضمير أو استقراء أو تمثيل، كذلك فعل البحترى لما ادعى فى البيت الأول أنه دان وشاسع

استشعر الإنكار عليه في جمع الضدين على محل واحد، فأتى بالحجة المثالية وهي مما يعترف به السامع ويذعن له المنكر، وهو ذكر البدر الذى لايتمارى في قرب ضيائه مع علوه بسمائه»(١).

غير خاف أن حديث الزملكاني عن فوائد التشبيه مستمد من كلام عبد القاهر في أسرار البلاغة عند حديثه عن أسباب تأثير التمثيل في النفس بقوله «فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بتصريح بعد مكني، وأن تردها في الشئ تعلمها إياه إلى شئ آخر هي بشأنه أعلم وثقتها به فى المعرفة أحكم نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس، وعما يعلم بالفكر إلى مايعلم بالاضطرار والطبع، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر فى القوة والاستحكام...»(٢).

واعتراض ابن عميرة على الزملكاني فى حقيقته اعتراض على عبد القاهر والبلاغيين من بعده.

وقد اتفق علماء البلاغة على أن كثيراً من التشبيهات وخاصة تشبيه الأمور العقلية بصورة حسية ينقل النفس من شئ تعرفه إلى شئ هي به أعرف فتزداد به أنساً، ويملؤها به ثقة واطمئنانا إليه، وقد أرجع البلاغيون ذلك إلى سببين هما:

أولاً: أن العلم المستفاد من طريق الحواس أو جهة الطبع والضرورة العلم المستفاد من جهة العقل والفكر في القوة والاستحكام ، وبلوغ الثقة

---

(١) التنبيهات ص ١٣٥.

(٢) أسرار البلاغة ص ١٢١.

فيه غاية التمام كما قيل «ليس الخبر كالعيان، ولا الظن كاليقين» كما في قوله تعالى «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء.. »[١].

فالمشبه وهو أعمال الكفار أمر معنوي يدرك عن طريق القعل أما المشبه به وهو السراب فأمر حسي يدرك بحاسة البصر.

وفي الآية الكريمة تشبيه لأعمال الكفار في عدم انتفاعهم بها يوم القيامة وعدم جدواها لهم السراب الذي يراه المسافر في الصحراء فيتوهمه ماء لشدة عطشه، ووجه الشبه بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة كما يقول الرماني[٢].

أرأيت أن الأمر المعنوي المعقول إذا برز فى صورة حسية «أنست به النفس ووثقت به واطْمأنت إليه لأنها نقلت إلى شيئ هي به أعلم وهو الحسي أو الضروري»[٣].

ثانيا: أن العلم المستفاد عن طريق الحواس ، أو من جهة الطبع والضرورة أسبق إلى النفس من العلم المستفاد من طريق العقل والروية، لأن العلم يجئ أولاً عن طريق الحواس والطباع ثم من جهة الفكر والعقل، فكل من الحسي والضروري أمس بالنفس رحماً وأقوي لديها ذماً وأقدم لها صحبة وأكد عندها حرمة[٤].

---

(١) النور الآية ٢٤.

(٢) النكت فى إعجاز القرآن للرماني ص ٨٢.

(٣) البلاغة التطبيقية ص ٩٥.

(٤) السابق نفس الموضع.

تأمل قول الشاعر:

الرأي كالليل مسود جوانبه والليل لاينجلي إلا بإصباح[1]

تجده أبرز الأمر المعنوي الذى يدرك عن طريق العقل وهو «الرأي» في صورة حسية ترى بالعين.

ومن ذلك قول البوصيري:

النفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

أن كلاً منهما ينشأ على ماعود عليه.

وهو بلاشك تشبيه رائع للأمر المعقول في صورة المحسوس، لايخفى أثره في تقوية المعنى وتأكيده فى النفوس لأن الأمور المعنوية إذا صورت في صورة محسوسة صارت تلمس باليد وترى بالعين، ومعلوم أن للمشاهدة والمعاينة أثراً فعالاً في النفوس.

وتعود مزية التشبيه في أنه ينقل من شئ تعرفه إلى شئ هي به أعرف وأعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم كما صرح بذلك الشيخ عبد القاهر ومن جاء بعده من البلاغيين.

مما تقدم يتضح لنا أن اعتراض ابن عميرة بقوله «وهذا لهو، فشأن الأقيسة الشعرية فما فوقها..»[2]، لهو طقطقة لسان لا طائل تحتها، ثم إني لم أستطع فهم مراده بالأقيسة الشعرية لأن الشعر ليس فيه. أقيسة المنطق وحدود المناطقة، إلا أن يكون قد أراد بهذه العبارة نوعاً من السفسطة التي لايرتضيها العلم[3]. والله أعلم

---

(١) انظر بغية الايضاح حاشية رقم «٣» ٣/١٥.

(٢) انظر أسرار البلاغة ص١٢١ والإيضاح ص ٣٣١ وبغية الإيضاح ٣/١٠.

(٣) التنبيهات ص ١٣٥.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم.

ثانياً: المصادر والمراجع.

١- الإحاطة في أخبار غرناطة تأليف لسان الدين ابن الخطيب.
تحقيق محمد عبد الله عنان. الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ مكتبة الخانجي بالقاهرة.

٢- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني.
قرأه وعلق عليه محمود شاكر. الطبعة الأولى ١٤١٢هـ دار المدني جدة.

٣- الإيضاح للخطيب القزويني.
تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي. الطبعة الخامسة ١٤٠٠هـ منشورات دار الكتاب اللبناني.

٤- بغية الإيضاح تأليف عبد المتعال الصعيدي.
ملتزم الطبع والنشر مكتبة الآداب مطبعتها بالجماميز القاهرة بدون تاريخ.

٥- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي.
تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ. دار الفكر بيروت.

٦- البلاغة التطبيقية دعامة النقد الأدبي السليم. للدكتور أحمد موسى.
الطبعة الأولى ١٩٦٣م. مطبعة المعرفة.

٧- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري للدكتور محمد أبو موسى.
الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ مكتبة وهبه القاهرة.

٨- تاريخ آداب العرب تأليف مصطفى صادق الرافعي.
الطبعة الثانية ١٣٩٤هـ دار الكتاب العربي بيروت.
٩- تاريخ الأدب العربي. للمستشرق الألماني كارل بروكلمان.
ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار وآخرين. الطبعة الخامسة ١٩٨٣م
دار المعارف بمصر.
١٠- تأويل مشكل القرآن لأبي محمد عبد الله بن قتيبة.
تحقيق السيد أحمد صقر. الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ. دار التراث
بالقاهرة.
١١- التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن لابن الزملكاني.
تحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي. الطبعة
الأولي. مطبعة العاني بغداد.
١٢- التصوير البياني للدكتور محمد أبو موسى.
الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ. مكتبة وهبه.
١٣- التنبيهات على ما في التبيان من التمويهات لأبي المطرف بن
عميرة.
تقديم وتحقيق محمد بن شريفة. الطبعة الأولي ١٩٩١م. مطبعة
النجاح الجديدة الدار البيضاء.
١٤- الحلة السيراء لابن الأبار.
حققه وعلق حواشيه الدكتور حسين مؤنس. الطبعة الثانية ١٩٨٥م.
دار المعارف بمصر.
١٥- الخصائص لأبي الفتح بن جني.
تحقيق الدكتور محمد علي النجار. الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ. عالم
الكتب بيروت.

١٦- خصائص التراكيب للدكتور محمد أبو موسى.
الطبعة الثالثة ١٩٨٠م، والطبعة الرابعة ١٤١٦هـ. مكتبة وهبة.
١٧- دراسات بلاغية للدكتور بسيوني عبد الفتاح فيود.
الطبعة الأولي ١٤٠٩هـ. مطبعة السعاد بالقاهرة.
١٨- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني.
قرأه وعلق عليه محمود شاكر. الطبعة الأولى ١٩٨٤م. مكتبة الخانجي بالقاهرة.
١٩- سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي.
تحقيق على فوده الطبعة الثانية ١٤١٤هـ. مكتبة الخانجي.
٢٠- شروح التلخيص. طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر.
٢١- الصاحبى لأبى الحسين أحمد بن فارس.
تحقيق السيد أحمد صقر. الطبعة الأولى ١٩٧٧م. مطبعة عيسى البابي الحلبي القاهرة.
٢٢- علم البيان في الدراسات البلاغية للدكتور علي البدري.
٢٣- فن الشعر لأرسطو.
ترجمة عن اليونانية وحقق نصوصه عبد الرحمن بدوي. دار الثقافة بيروت. بدون تاريخ.
٢٤- الكتاب لسيبويه. لأبي بشر عمرو بن قنبر.
تحقيق وشرح عبد السلام هارون. الطبعة الثانية ١٩٧٧م. مكتبة الخانجي.
٢٥- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري.
تحقيق على البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم . الطبعة الثانية. دار الفكر العربي القاهرة.

٢٦- الكشاف لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري.
الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ. دار الفكر بيروت.
٢٧- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة.
دار الفكر بيروت . بدون تاريخ.
٢٨- الكناية أساليبها ومواقعها في الشعر الجاهلي. تأليف محمد الحسن علي محمد الأمين.
الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ. مكتبة الفيصلية مكة المكرمة.
٢٩- الكناية والتعريض لأبي منصور الثعالبي.
طبع مع كتاب المنتخب من كنايات الأدباء للجرجاني. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ. دار الكتب العلمية بيروت.
٣٠- المطول لسعد الدين التفتازاني طبع فى تركيا سنة ١٣٠٨هـ.
٣١- معجم المؤلفين . تأليف عمر رضال كحالة.
دار إحياء التراث العربي بيروت بدون تاريخ.
٣٢- المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي.
تحقيق الدكتور شوقى ضيف. الطبعة الثالثة ١٩٨٠م دار المعارف مصر.
٣٣- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل لابن الزبير الغرناطي.
تحقيق سعيد الفلاح. الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ دار الغرب الإسلامى.
٣٤- من أسرار التركيب البلاغي للدكتور السيد عبد الفتاح حجاب.
الطبعة الأولى ١٣٩٧م. المكتبة التوفيقية بالقاهرة.
٣٥- المنتخب من كنايات الأدباء للجرجاني. الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ دار الكتب العلمية.

٣٦- نظرات فى البيان للدكتور محمد عبد الرحمن الكردي.
الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ. مطبعة السعادة بمصر.
٣٧- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري.
تحقيق الدكتور إحسان عباس. ١٩٦٨م. دار صادر بيروت.
٣٨- النكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن الرماني . طبع ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن.
تحقيق محمد خلف الله ود. محمد زعلول سلام. الطبعة الرابعة ١٩٩١. دار المعارف.
٣٩- منهاج البلغاء وسراج الأدباء . لأبي الحسن حازم القرطاجني.
تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجه . الطبعة الثانية ١٩٨١م.
دار الغرب الإسلامى.

الاستفتاح والتنبيه فى اللغة العربية

دراسة نحوية قرآنية

أ.م.د/ على محمود محمدين النابى
أستاذ مساعد بكلية البنات الإسلامية
بأسيوط

[بسم الله الرحمن الرحيم]

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ،

وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين

وبعد ،،

فلغتنا العربية لغة عجيبة فى تنسيقها، وتنظيمها ودقة إحكامها إذ يحتاج الكاتب والقارئ. إلى يقظة ووعى حتى يقف على دقائقها، ويستجلى غوامضها، فكل كلمة منها لها نسق مع غيرها، وقالب تعيش فيه، ومن هذا حروف الاستفتاح والتنبيه فقد لفتت نظرى واسترعت انتباهى بدقة استعمالها، وعمق معانيها، مما جعلها مجالاً للبحث والمناقشة، ومن خلالها نتعرف على التنوع فى الأساليب المختلفة التى تحتاج إلى الدراسة الجادة المتخصصة، ونميط اللثام عن عظمة لغتنا العربية وإذا تتبعنا مادة الاستفتاح والتنبيه فى المعاجم اللغوية نجد كلمة التنبيه تعنى القيام والانتباه، والاستيقاظ، والشعور بالقدر وعلوه ، والفطانة[1] ، والشهرة قال ذو الرمة:

كأنه دملج من فضة نبهت فى ملعب من جوارى الحى مفصوم

إنما جعله مفصوماً لتثنيه، وانحنائه إذا نام، ومنها نبه الرجل بالضم شرف واشتهر، ينبه نباهة، فهو نبيه ونابه وهو خلاف الخامل، ونبهته على

---

(١) اللسان (نبه) ٦ : ٤٣٣٢ بتصرف .

الشئ : أوقفته عليه فتنبه هو عليه[١]، ولعل هذا هو المقصود من التنبيه هنا والفتح: نقيض الإغلاق، قال فى اللسان[٢] العرب: تقول: فتحت الجنان تريد أبواب الجنان قال تعالى: «وفتحت السماء فكانت أبوابا »[٣]، وقوله: «مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها، ومايمسك فلا مرسل له من بعده »[٤] قال الزجاج معناه مايأتيهم به الله من مطر أو رزق فلا يقدر أحد أن يمسكه، ومايمسك من ذلك فلا يقدر أحد أن يرسله وفى الحديث (أوتيت مفاتيح الكلم)، وفى رواية مفاتح، ومفتح، وهما فى الأصل مما يتوصل به إلى استخراج المعلقات التى يتعذر الوصول إليها، فأخبر أنه أوتى مفاتيح الكلام، وهو ما يسر الله له من البلاغة ، والفصاحة، والوصول إلى غوامض المعانى ، وبدائع الحكم، ومحاسن العبارات، والألفاظ التى أغلقت على غيره، وتعذرت عليه، ومن كان فى يده مفاتيح شئ مخزون سهل عليه الوصول إليه، وكل ما انكشفت عن شئ، فقد انفتح عنه وتفتح، وتفتح الأكمة عن النور: تشققها، واستفتحت الشئ وافتتحته، والاستفتاح: الاستنصار، وقوله تعالى: «إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً»[٥] أى قضينا لك قضاء مبيناً أى حكمنا لك بإظهار دين الإسلام، وبالنصر على عدوك وقال الجوهرى[٦] الفتح : النصر، والفتح: الماء يجرى من عين أو غيرها، وفاتحة

---

(١) الصحاح للجوهرى (نبه) ٦ : ٢٢٥١ تحقيق أحمد عبد الغفور عطار.

(٢) (فتح) ٢ : ٣٣٣٧ بتصرف.

(٣) سورة النبأ الآية (١٩).

(٤) سورة فاطر الآية (٢).

(٥) سورة الفتح الآية (١).

(٦) الصحاح (فتح).

الشئ: أوله، والفتاح: الحاكم ولعل المعنى المقصود من الاستفتاح الإظهار، والبدء والكشف عما سيأتى من حديث.

بعد ذلك أقول وقد قمت باستقصاء أدوات الاستفتاح والتنبيه من كتب النحو المتخصصة ، وناقشتها على ضوء الآيات الكريمة كما هو مدون فى البحث.

وأردت بهذا الجهد المتواضع المشاركة فى إبراز معانى تلك الحروف، فعلى سبيل المثال: «ألا إن لله ما فى السموات والأرض ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لايعلمون»[٢] يقول أبو حيان[٣]:

و (ألا) كلمة تنبيه دخلت على الجملتين تنبيهاً للغافل إذا كانوا مشغولين بالنظر إلى الأسباب الظاهرة، من نسبة أشياء إلى أنها مملوكة لمن جعل له بعض تصرف فيها ، واستخلاف ولذلك قال تعالى: (ولكن أكثرهم لايعلمون)، يعنى لغفلتهم هذه الدلائل.

وصدرت الآية بحرفى التنبيه، والتأكيد لزيادة تقرير مضمونها هذه واحدة، كما نجد (يا) حرف تنبيه وهى قسمان[٣].

الأول: أن تكون لتنبيه المنادى نحو: يازيد، فهى فى هذا حرف نداء وهى أم باب النداء، فلذلك دخلت فى جميع أبوابه، وانفردت بباب الاستغاثة، وشاركت (وا) فى باب الندبة، وهى لنداء البعيد مسافة أو حكما، وقد ينادى بها القريب توكيدا ومذهب سيبويه[٤] أن ماعدا الهمزة

---

(١) سورة يونس الآية (٥٥).

(٢) فى البحر المحيط ٥ : ١٧٠.

(٣) الجنى الدانى ٣٤٩ ، الكتاب ٢ : ٢١٨.

(٤) الكتاب ٢: ٢٢٩ ، ٢٣٠.

من حروف النداء فهو للبعيد إلا أنه يجوز نداء القريب بما للبعيد على سبيل التوكيد، وقيل (يا) مشتركة ينادى بها القريب والبعيد لكثرة استعمالها، ولكثرة استعمالها نقول: إنها هى المحذوفة فى النداء فى نحو: «يوسف أعرض عن هذا»[١] و «وربنا آمنا»[٢] ومواضع حذفها مذكورة فى كتب النحو فلا نطول بها.

ومن أدوات التنبيه (ها) لها موضعان: أحدهما تلحق الاسماء المبهمة المفردة نحو هذا، وتتنزل منزلة حرف من الكلمة، ولهذا يدخل حرف الجر عليه كقوله تعالى : «ومن هؤلاء من يؤمن به»[٣] ، ويفصل به بين المضاف والمضاف إليه كقوله : «لمثل هذا فليعمل العاملون»[٤].

الثانى: أن تدخل على الجملة كقوله: «ها أنتم أولاء تحبونهم»[٥] وقوله: «ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة»[٦]، ويدل على دخول حرف التنبيه على الجملة أنه لا يخلو إما أن يقدر به الدخول على الاسم المفرد، أو الجملة، ولايجوز الأول، لأن المبهم فى الآيتين دخل عليهما حرف الإشارة فعلم أن دخولها إنما هو الجملة ذكره أبو على[٧] إلى غير ذلك مما هو موجود فى ثنايا البحث وعلى الله قصد السبيل.

والله أعلم...

---

(١) سورة يوسف الآية (٢٩).

(٢) سورة آل عمران الآية (٥٣) ، سورة المائدة الآية (٨٣) ، سورة المؤمنون الآية (١٠٩).

(٣) سورة العنكبوت الآية (٤٧).

(٤) سورة الصافات الآية (٦١).

(٥) سورة آل عمران الآية (١١٩).

(٦) سورة النساء الآية (١٠٩).

(٧) البرهان للزركشى ٤: ٤٣٢.

الاستفتاح والتنبيه فى اللغة العربية
دراسة نحوية قرآنية
١) - ألا -

ترد لمعان منها استفتاح الكلام، وتنبيه المخاطب، وهى تدخل على الجملة الاسمية نحو قوله تعالى: «ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون»[١] صدرت الجملة بحرفى التنبيه والتحقيق لزيادة تقرير مضمونها[٢] ، والفعلية نحو قوله تعالى: «ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم»[٣] أى ذلك العذاب الأخروى، أو الدنيوى ليس مصروفاً عنهم أى أنه لايرفعه رافع أبداً، أو لايدفعه عنهم دافع بل هو واقع بهم[٤]، واسم ليس ضمير عائد على العذاب، وكذلك فاعل (يأتيهم)، والتقدير: ألا ليس العذاب مصروفاً عنهم يوم يأتيهم، ودل على هذا المحذوف سياق الكلام[٥]. وعلامة ألا صحة الكلام دونها، واختلف فيه هل هى مركبة؟ أو بسيطة، وممن قال بالتركيب الزمخشرى[٦] أى أنها مركبة من همزة الاستفهام، و (لا) النافية، وتفيد توكيد مضمون الجملة[٧].

---

(١) سورة يونس الآية (٦٢).

(٢) تفسير أبى السعود جـ٤ : ١٥٨ ، الجمل ١: ١٧١/ ٢ : ٣٥٣.

(٣) سورة هود الآية (٨).

(٤) روح المعانى ١٢: ١٠٤.

(٥) الدرر المصون ٤ : ٨٢.

(٦) الكشاف ١: ٦٢.

(٧) أمالى ابن الشجرى ٢ : ٧٦، المفصل لابن يعيش ٨ : ١١٥، الرضى ٢: ٣٥٣.

وقال أبو حيان[١]:

هى حرف بسيط، لأن دعوى التركيب خلاف الأصل، كما أن مواقعها لاتدل على أن (لا) للنفى ، فنحو قولنا ألا إن زيداً منطلق، ليس أصله (لا إن) زيداً منطلق. وليس من تراكيب العرب، ولوجودها قبل رب، ليت ، وقبل النداء وهذا يدل على أنها ليست نافية.

وممن قال إنها بسيطة السمين[٢] ، ولكنها لفظ مشترك بين التنبيه والاستفتاح فتدخل على الجملة اسمية كانت أو فعلية، وبين العرض والتحضيض، فتختص بالأفعال لفظاً، أو تقديراً ، وتكون النافية للجنس دخلت عليها همزة الاستفهام، وعلى أية حال فهى تشير إلى مابعدها، فنحو قوله تعالى:«ألا ساء مايزرون»[٣] افتتحت هذه الجملة بألا تنبيهاً، وإشارة، لسوء مرتكبهم، فألا تدل على الإشارة بما يأتى بعدها كقوله صلى الله عليه وسلم: (ألا فليبلغ الشاهد الغائب)[٤].

وقال الزركشى[٥] تأتى للاستفتاح ، وفائدته التنبيه على تحقيق ما بعدها، ولذلك قل وقوع الجمل بعدها إلا مصدرة بنحو مايتلقى به القسم ، فتأتى بعدها الجمل الاسمية المصدرة بإن المشددة ، ومعها ضمير الفصل نحو قوله تعالى : «إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون»[٦].

---

(١) البحر ١: ٦٢.

(٢) الدرر المصون ١: ١٢٠ ، وانظر النحو الوافى ١: ٨٠٧.

(٣) الأنعام ٣١ ، النحل الآية (٢٥).

(٤) البحر ٤ : ١٠٨.

(٥) البرهان ٤ : ٢٣٥.

(٦) سورة البقرة الآية (١٢).

ونحو قوله تعالى:

«ألا إن الله هو الغفور الرحيم»[١].

ونحو قوله تعالى:

«ألا إن حزب الله هم المفلحون»[٢].

وتأتى بعدها الجملة الاسمية بإن المشددة من غير ضمير الفصل نحو قوله تعالى: «ألا إن لله ما فى السموات والأرض ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لايعلمون»[٣]، ونحو قوله تعالى: «ألا إن لله مافى السموات والأرض»[٤] ، ونحو قوله تعالى: «ألا إن نصر الله قريب»[٥]، ونحو قوله تعالى: «ألا ذلك هو الخسران المبين»[٦] فقد جاءت بعدها الجملة الاسمية مع ضمير الفصل.

وتأتى بعد (ألا) الجملة الاسمية من غير (إن)، ومن غير ضمير الفصل نحو قوله تعالى: «ألا لعنة الله على الظالمين»[٧] ونحو قوله تعالى: «ألا هو العزيز الغفار»[٨] ويأتى بعدها جملة اسمية تقدم خبرها، نحو قوله تعالى: «ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين»[٩] ،

---

(١) سورة الشورى الآية (٥).

(٢) سورة المجادلة الآية (٢٢).

(٣) سورة يونس الآية (٥٥).

(٤) سورة النور الآية (٦٤).

(٥) سورة البقرة الآية (٢١٤).

(٦) سورة الزمر الآية (١٥).

(٧) سورة هود الآية (١٨).

(٨) سورة الزمر الآية (٥).

(٩) سورة الأنعام الآية (٦٢).

ونحو قوله: «ألا له الخلق والأمر»[١] ونحو قوله : «ألا لله الدين الخالص»[٢].

وتأتى بعدها (من) الشرطية نحو قوله تعالى: وتأتى بعدها من الشرطية نحو قوله تعالى : «إلا من ظلم ثم بدل حسناً بعد سوء فإنى غفور رحيم»[٣] قرأ أبو جعفر وزيد بن أسلم (ألا) بفتح الهمزة، وتخفيف اللام حرف استفتاح، و (من) شرطية[٤]، وجملة اسمية محصورة بإنما نحو قوله : «ألا إنما طائرهم عند الله»[٥]، ويأتى بعدها المضارع سواء أكان مفصولاً بالظرف أم الجار والمجرور، أم غير مفصول نحو قوله: «ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم مايسرون وما يعلنون»[٦].

ونحو قوله تعالى: «ألا بذكر الله تطمئن القلوب»[٧] ، ونحو قوله تعالى : «إلا إلى الله تصير الأمور»[٨] جاء بأداة الاستفتاح ثم قدم الجار والمجرور للاهتمام، وأخبر بالمضارع والمراد به الديمومة كقوله زيد يعطى ويمنع أى من شأنه ذلك ، ولايراد به حقيقة المستقبل[٩]. ويأتى بعدها

---

(١) سورة الأعراف الآية (٥٤).

(٢) سورة الزمر الآية (٣).

(٣) سورة النمل الآية (١١).

(٤) المحتسب ٢ : ١٣٦ ، البحر ٥٧ : ٧.

(٥) سورة الأعراف الآية (١٣١).

(٦) سورة هود الآية (٥).

(٧) سورة الرعد الآية (٢٨).

(٨) سورة الشورى الآية (٥٣).

(٩) البحر ٧ : ٥٢٨.

الماضى المتصرف المفصول بالجار والمجرور نحو قوله تعالى: «ألا فى الفتنة سقطوا»[١]، وجاء بعدها ليس مفصولة بالظرف كما فى قوله تعالى: «ألا يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم»[٢]، ولم يل (ألا) فعل ماض متصرف من غير فصل فى القرآن الكريم[٣] وجاء بعد (ألا) (يا) كثيرا فى كلام العرب، وجاء ذلك فى قراءة سبعية نحو قوله تعالى: «وزين لهم الشيطان أعمالهم فهم لايهتدون ألا يسجدوا لله»[٤] قرأ الكسائى، وأبو جعفر ألا يا اسجدوا[٥]، ويرى الفراء أن هذه القراءة على حذف المنادى[٦]، وكذلك يرى ابن مالك أن المنادى يحذف قبل الأمر والدعاء[٧]، ويرى ابن جنى وأبو حيان أن (ألا) فى الكلام لها معنيان: افتتاح الكلام والتنبيه، فإذا دخلت على (يا) خلصت (ألا) افتتاحاً، وخص التنبيه ، بيا كقول نصيب:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد
فقد زادنى مسراك وجداً على وجد[٨]

---

(١) سورة التوبة الآية (٤٩).

(٢) دراسات لأسلوب القرآن الكريم ١ : ٢٢٠.

(٣) سورة النمل من الآيتين (٢٤ ، ٢٥) .

(٤) النشر ٢ : ٣٣٧ ، الإتحاف ٣٣٦.

(٥) معانى القرآن ٢ : ٢٩٠.

(٦) التسهيل ١٧٩.

(٧) هو فى الديوان ٨٥ ، شرح التصريح ٨ : ١١٩ ، شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ١٢٩٨ الديوان ٨٥.

(٨) هو فى الديوان ٨٥ ، شرح التصريح ٨ : ١١٩ ، شرح ديوان الحماسة للمرزوقى ١٣٩٨ الديوان ٨٥.

وتكرار (ألا) فى جملتين متواليتين نحو قوله تعالى: «ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهن يعلم مايسرون ومايعلنون»[١].

ونحو قوله تعالى : «ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود»[٢] كرر التنبيه بقوله (ألا) فى الدعاء عليهم تهويلاً لأمرهم وتفظيعاً له، وبعثاً على الاعتبار بهم ، والحذر من مثل حالهم[٣].

ونحو قوله تعالى : «ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شئ محيط»[٤] ألا: أداة استفتاح وتنبيه السامه على مايقال[٥] ، فهى تكون تنبيهاً واستفتاحاً، وإذا لم تدخل صح الكلام دونها، وتدخل على الجملة الاسمية والفعلية[٦] وقد تقدم ، أما الأحاديث النبوية فهى أكثر من أن تحصى منها قول الرسول صلى الله عليه وسلم لأحد أصحابه: (ألا أدلك على كلمة هى كنز من كنوز الجنة لاحول ولاقوة إلا بالله)[٧] وقوله صلى الله عليه وسلم: «ألا إن الله حرم عليكم

---

(١) سورة هود الآية (٥).

(٢) سورة هود الآية (٦٠).

(٣) البحر ٥ : ٢٣٦.

(٤) سورة فصلت الآية (٥٤).

(٥) البحر ٧ : ٥٠٦.

(٦) رصف المبانى للمقالى ٧٨.

(٧) فتح البارى رقم ٦٣.

دماءكم وأموالكم محرمة يومكم هذا)[١]، وقوله صلى الله عليه وسلم (ألا من ولى يتيماً له من مال فليتجر منه)[٢].

٢- أما المفتوحة المخففة

لها موضعان[٣]:

الموضع الأول: أن يكون معناها التنبيه والاستفتاح مثل (ألا) وكثر قبل القسم نحو: أما والله لقد كان كذا وكذا، كما كثر (ألا) قبل النداء نحو: ألا يازيد فبابها الجمل الاسمية، والفعلية، وإن المكسورة نحو: أما زيد قائم، وأما قام زيد، وأما إنك قائم، ومن ذلك قوله[٤]:

أما والذى أبكى وأضحك والذى أمات وأحيا والذى أمره الأمر

وقد تكون (أما) همزة داخلة على (ما) النافية، فيكون معنى تركيبها التقرير والتوبيخ، كما يكون ذلك فى الهمزة ولم نحو: ألم يقم زيد أو ليس زيد بقائم كما قال تعالى: «**أليس الله بأعلم بالشاكرين**»[٥] ودخول الهمزة على (ما) النافية يجعلها تفيد التوكيد والتنبيه فهى حرف مبنى على السكون نحو أما نجحت، وتكون للعرض أى الطلب برفق نحو: أما تذهب معنا، وتكون بمعنى حقاً نحو: أما إنك منتصر فهى تفيد التوكيد

---

(١) فتح البارى ٣ ٤٤٠.

(٢) الترمذى فى الزكاة ١٥ .

(٣) رصف المبانى ٩٦ ، ٩٧ ، مغنى اللبيب ٥٤.

(٤) البيت لأبى صخر الهذلى ، أمالى ابن الشجرى ٨ : ١٤٤ ، ١١٥و أمالى القالى ١: ١٤٧ ، شواهد المغنى ٥٤ ، ٦٨ ، ٦٢ ، ٨٥ ، الهمع ٢ : ٧٠.

(٥) الأنعام ٥٣.

والتنبيه بمعنى شئ ومن ذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم للسيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنهـا (**أما ترضين أن تكونى سيدة نساء أهل الجنة**) [١] وقد تبدل همزة (أما) هاء، أو عيناً فيقال هما والله، وعما والله وقد تحذف ألفها فى الأحوال الثلاثة فيقال: أم والله ، وهم والله وعم والله [٢].

٣) ها - التنبيه

سميت بذلك ، لأن المراد منها إما تنبيه الغافل إلى مابعدها ، وتوجيهه إلى ما سيذكر، وإما إشعار غير الغافل إلى أهمية مابعدها وجلال شأنه ، ليتفرغ له ، ويقبل عليه.

وحكم (ها) [٣] التنبيه الفتح عند أكثر العرب، ويجوز ضمها فى لغة بنى أسد، وقرئ فى السبع «يا أيه الساحر» [٤] قرأ ابن عامر وحده (يأيه) اتباعاً للمصحف، وقرأ الباقون، (يأيه) [٥] وابن عامر قرأ بضم ها (أيها) فى ثلاثة مواضع [٦] ، وقد رسمت الهاء فى المصحف بغير ألف وهى:

---

(١) فتح البارى رقم ٣٦٢٤.

(٢) مغنى اللبيب ١/٥٥.

(٣) الهمع ١ : ١٧٥.

(٤) الزخرف ٤٩.

(٥) إعراب القراءات السبع وعللها لابن خالويه ٢: ٣٠٢ .
تحقيق د. عبد الرحمت العثيمين.

(٦) دراسات لأسلوب القرآن ١٠ : ٢٤٠.

١- «وتوبوا إلى الله جميعاً آية المؤمنون»[١] قرأ ابن عامر أية بضم الهاء[٢].

٢- «وقالوا يأيها الساحر ادع لنا ربك»[٣] قرأ ابن عامر أيه بضم الهاء[٤].

٣- «سنفرغ لكم أية الثقلان»[٥] قرأ ابن عامر أيه بضم الهاء[٦] و (ها) لفظ يكون اسما وحرفاً فإذا كان اسماً فله قسمان..

أحدهما: أن يكون اسم فعل بمعنى خذ.

الثانى أن يكون ضميرا للغائبة.

وإذا كان حرفاً فهو حرف تنبيه، ويطرد فى أربعة مواضع الأول مع اسم الإشارة نحو هذا، ويكثر فى المجرد من الكاف ويقل فى المقرون بالكاف كقول طرفة[٧].

رأيت بنى غبراء لاينكروننى ولا أهل هذاك الطراف الممدد

ويمتنع فى المقرون بالكاف واللام فلا يقال: هذا لك لكثرة الزوائد، فإن كان اسم الإشارة لمثنى، أو لجمع، فإن ابن مالك يرى أنه لايجوز أن يؤتى

---

(١) النور ٣١ .

(٢) الإتحاف ٣٢٤ ، غيث النفع ١٨٠ ، البحر ٦ : ٤٥٠، النشر ٦ : ٣٣٢.

(٣) الزخرف ٤٩.

(٤) الإتحاف ٣٦٨ ، النشر ٢ : ٣٦٩ .

(٥) الرحمن ٣١.

(٦) الإتحاف ٤٠٦ ، غيث النفع ٢٥٢ ، النشر ٢ : ٣٨١.

(٧) الطراف : البيت من الأدم شرح شواهد الألفية للعينى ١ : ٤١٠ ، الهمع ١" ٧٦.

بالكاف مع حرف التنبيه حينئذ وذهب أبو حيان[١] إلى أن ذلك قليل لاممتنع، ذكر ذلك ابن عقيل[٢].

يقول أبو حيان، ويصحب (ها) التنبيه اسم الإشارة المجرد من كاف الخطاب كثيراً نحو : هذا، وهذان، وهذه ، وهاته، وهاتي، وهاتا، وهاتان، وهؤلاء، والمقرون بالكاف قليل نحو هذاك وهاتيك، وزعم ابن يسعون[٣] أن (تي) فى المؤنث لاتستعمل إلا بهاء فى أولها، وبالكاف فى آخرها، ورد عليه أبو حيان بقوله ليس بصحيح.

فغاية ما فى الأمر أن (هاء) التنبيه لاتكون فيما استعمل فى الرتبة البعدى، وتجامع ماكان فى الرتبة القربى وقال الفراء[٤] أهل الحجاز يقولون ذلك ، وبه جاء القرآن وأهل نجد من تميم وقيس وربيعة بغير لام، وفصل (ها) التنبيه من اسم الإشارة المتقدم الذكر، المجرد من حرف الخطاب بأنا وأخواته من الضمائر المرفوعة الموضع المنفصل نحوها أنا ذا، وها أنتم أولاء، وها أنتن أولاء ، وها هو ذا، وهذان ، وها هما ذان، وها هماتان،

---

(١) ارتشاف الضرب ١ : ٥٠٦.

(٢) شرح ابن عقيل ١ : ١١٨.

(٣) هو يوسف بن يبقى بن يوسف بن مسعود بن عبد الرحمن بن يسعون أبو الحجاج التجيبى الأندلسى ويقال: له الشنش: لغوى كان صاحب الأحكام بالمرية له المصباح فى شرح أبيات الإيضاح للفارس مخطوط جزءان من مجلد ضخم كتب سنة ٦٣٤ فى النحو يدل على تبحره فى اللغة - رآه الميمنى فى المكتبة الأحمدية بحلب ، وكتب عنه فى مذكراته قال ابن قاضى شهبه كان حياً فى سنة ٥٤٢ الأعلام للزركلى ٨ : ٢٥٦ ، بغية الوعاة ٤٢٤ ، ٤٢٥.

(٤) معانى القرآن ١: ٢٣١ ، ٢٣٢.

وها هم أولاء ، وها هن أولاء ، فيكون الضمير مبتدأ واسم الإشارة خبر عنه، وقال الزجاج[١] لو قال قائل ها زيد ذا جاز بلا خلاف يعنى أنه يفصل بينهما بغير ضمير، وقد يفصل بين (ها) التنبيه، واسم الإشارة بالحرف الناسخ (إن) كقول النابغة الذبيانى...

ها أن ذى عذرة إلا تكن نفعت فإن صاحبها مشارك النكد[٢]

فإن لم يخبر عن المضمر باسم الإشارة فلا يكون إلا شاذا نحو قوله[٣]

أبا حكم ها أنت عم مجالد وسيد أهل الأبطح المتناحر

فإذا اجتمعت ها التنبيه، والكاف لم يصح مجئ لام البعد معهما فلا يجوز هذا لك، فالمواضع التى تمتنع فيها اللام خمسة:

١- اسم الإشارة الذى ليس فى آخره كاف الخطاب.

٢- أسماء الإشارة السبعة التى للمؤنث وهى التى لاتدخلها الكاف أيضا.

٣- أولاء الممدودة.

---

(١) ارتشاف الضرب ١ : ٥٠٦.

(٢) هكذا تكون رواية الديوان ص ٥٩، وعذرة : اعتذار، مشارك النكد: محالف الهم، منغص العيش، والمعنى يريد أن يقول للنعمان: إنك إذا لم تقبل اعتذارى فإننى إنسان قد اعتاد محالفة الهم والعيش المنغص، ويروى فإن صاحبها قد تاه فى البلد شرح المفصل لابن يعيش ٨ : ١١٣ ، ١١٤ ، شرح شواهد الشافية ٨٠ الخزانة ٤/٤٧٨ بولاق.

(٣) قال الفراء عن البيت وأنشدنى بعض بنى أسد، ونقله اللسان (نحر) عن الفراء ولم ينسبه إلى القائل مَن بنى أسد ورواية اللسان (هل أنت) مكان (ها أنت) وفى تفسير القرطبى ٢٠ : ٢١٩ ما أنت مكان ها أنت.

٤- اسم الإشارة المثنى مذكراً ومؤنثاً.

٥- اسم الإشارة المبدوء بهاء التنبيه، والمختوم بكاف الخطاب وتمتنع الكاف إن فصل بين ها التنبيه، واسم الإشارة فاصل فى نحو هأنذا، فلا يقال هأنذاك، فلا يصح الإتيان بالكاف بعد اسم الإشارة، وهذا الموضع لاتدخله كاف الخطاب وإذا لاتدخله (لام البعد) قال ابن مالك[١]:

«وقد تعاد بعد الفصل توكيدا[٢] قال تعالى: «ها أنتم هؤلاء»[٣] وهو مخالف لظاهر كلام سيبويه قال سيبويه[٤] : وقد تكون ها فى ها أنت ذا غير مقدمة لكنها تكون للتنبيه بمنزلتها فى هذا، يدلك على هذا قوله عز وجل: «ها أنتم هؤلاء» فلو كانت (ها) ها هنا هى التى تكون أولا إذا قلت هؤلاء لم تعد (ها) ها هنا بعد أنتم، وزعم الخليل رحمه الله أن ها هنا هى التى مع ذا إذا قلت هذا، وإنما أرادوا أن يقولوا هذا أنت، ولكنهم جعلوا أنت بين ها وذا، وأرادوا أن يقولوا أنا هنا وهذا أنا، فقدموا (ها) وصارت أنا بينهما، وزعم أبو الخطاب[٥] أن العرب الموثوق

---

(١) التسهيل ص٤٠ .

(٢) معنى عبارة ابن مالك أن «ها» التى للتنبيه قد تعاد بعد فصلها من اسم الإشارة بالضمير المرفوع المنفصل على سبيل التوكيد (انظر شرح التسهيل لابن مالك ١/ ٢٤٥).

(٣) آل عمران ٦٦ / والنساء ١٠٩ / محمد ٣٨.

(٤) الكتاب ٢/٣٥٤ ، ٣٥٥.

(٥) عبد الحميد عبد المجيد الأخفش الأكبر توفى سنة ١٤٧هـ ، وأخذ عنه يونس وسيبويه والكسائى وأبو عبيدة (بغية الوعاة) ٢ : ٧٤.

بهم يقولون أنا هذا وهذا أنا ومثل ما قال الخليل رحمه الله فى هذا قول الشاعر:

ونحن اقتسمنا المال نصفين بيننا

فقلت: لهم هذا لها ها وذاليا[1]

كأنه أراد أن يقول: وهذا لى، فصير الواو بين ها وذا وزعم أن مثل ذلك،إى ها الله ذا، إنما هو هذا وقال: وحدثنا يونس أيضا تصديقاً لقول أبى الخطاب، أن العرب تقول: هذا أنت تقول كذا وكذا، لم يرد بقوله هذا أنت، أن يعرفه نفسه، كأنه يريد أن يعلمه أنه ليس غيره هذا مخالف، ولكنه أراد أن ينبهه، كأنه قال: الحاضر عندنا أنت، والحاضر القائل كذا وكذا أنت وإن شئت لم تقدم ها فى هذا الباب، قال تعالى: «ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم»[2].

أما (هنا) فقد يزاد فى أولها حرف التنبيه (ها) نحو هاهنا فهى فى الحالتين سواء ، وهو ظرف مكان واسم إشارة معاً، ولايتصرف، وقد يجر بمن، أو بإلى ، فتقول من هنا وإلى هنا، وهو لدانى الكلام، وهناك لوسطه ويدخل عليهما هاء التنبيه، وأن يزاد على آخرها الكاف المفتوحة للخطاب وحدها، وقبلها لام البعد فتصير مع الظرفية إشارة للمكان المتوسط هناك أو ها هناك، ويصح أن يتصل بآخرها كاف الخطاب المفتوحة وقبلها لام البعد

---

(١) قائله لبيد كما عند الشنتمرى، ولبس فى ديوانه ولا ملحقاته الكتاب ٢: ٣٥٤، المفصل لابن يعيش ٨ : ١١٤ ، الهمع ١: ٧٦ ، الخزانة ٢ : ٤٧٠/ ٤ : ٤٧٨ والشاهد فيه الفصل بين (ها) و (ذا) بالواو والتقدير وهذا لى كما قالوا هأنذا والتقدير هذا أنا.

(٢) البقرة ٨٥ .

فتصير مع الظرفية إشارة للمكان البعيد مثل هنالك، وفى هذه الصورة تمتنع (ها) التنبيه، لأن ها التنبيه لاتجتمع مع لام البعد. ولاتزاد اللام فى اسم الإشارة المبدوء بحرف التنبيه (ها) المختوم بكاف الخطاب الحرفية فلا يصح فى مثل هناك.

وهاتاك أن يقال هذا لك، ولا هاتالك على اعتبار اللام فى هنا للبعد والكاف حرف خطاب[١].

ومن الظروف المشار بها إلى المكان البعيد هنا مشددة مكسورة الهاء، أو مفتوحتها، قال أبو حاتم إن أمرته أن ينحى عنك قلت تنح هنا وهنا، وإن شئت أدخلت حرف التنبيه فقلت تنح هاهنا وهى فى هذا كله ظرف مكان بمنزلة (ثم) قال صاحب الترشيح[٢] وهى فى كل حال من أمر، أو نهى أو خبر مشددة قال ذو الرمة[٣].

هنا وهنا ومن هنا لهن بها ذات الشمائل والأيمان هينوم

جاء بها مشددة فى الخبر وحكى ابن هشام[٤] قول ابن عصفور فى قوله :

---

(١) النحو الوافى ١ : ٣٢٦.

(٢) خطاب المارى المتوفى فى حدود ٤٥٠هـ .

(٣) من قصيدة مطلعها (أعن ترسمت من خرقاء * * من الصبابة من عينيك مسجوم) وقبله: (للجن بالليل فى حافتها* * كما تناوح يوم الريح عيشوم) فى حافتها: أى حافات بهماء أى صحراء ، وزجل: صوت ، والعيشوم شجر له صوت مع الريح ، والهينوم: الكلام الخفى الخصائص٣: ٣٨، المفصل ٣: ١٣٧ ، شرح شواهد الألفية للعينى١: ٤١٣، التصريح على التوضيح على التوضيح ١: ١٢٩، الأشمونى ١ : ١٤٥ الديوان ٥٧٦.

(٤) المغنى ٥٩٢ ، المقرب ١: ١٠٥ .

حنت نوار ولات هنا حنت وبدا الذى كانت نوار أجنت

أن هنا اسم لات، وحنت: خبرها بتقدير مضاف أى وقت حنت فاقتضى إعرابه الجمع بين معموليها، وإخراج هنا عن الظرفية وإعمال (لات) فى معرفة ظاهرة، وفى غير الزمان وهو الجملة النائبة عن المضاف، وحذف المضاف إلى الجملة، والأولى قول الفارسى إن (لات) مهملة وهنا: خبر مقدم، وحنت : مبتدأ مؤخر بتقدير (أن) مثل: تسمع بالمعيدى خير من أن تراه ليس ذلك الوقت وقت حنت أى وقت حنان فالآية السابقة «ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم»[1] ها: حرف تنبيه، أنتم: مبتدأ، وهؤلاء الخبر ، أو بدل وكرر الهاء توكيداً كما سبق[2].

وقوله : «إنا ها هنا قاعدون»[3].

ها: حرف تنبيه، هنا: ظرف مكان عاملها قاعدون خبر إن الظرف ومابعده ينتصب على الحال، أو هو الخبر والظرف يتعلق به وهذا أوضح[4] ويلاحظ أن الهاء تدخل على اسم الإشارة لغير البعيد نحو هذا وهذان وهؤلاء وهاتان وهاتاك وهاتان، وهاته، وهاته وهؤلاء، ها هنا.

الثانى: مع (أى) و (أية) فى النداء للتوصل بها إلى نداء ما فيه الألف واللام ، وحرف التنبيه (ها) لازم فى هذا الموضع لأنه كالصلة (لأى) بسبب ما فاتها من الإضافة ، ولذلك يقول المعربون فيه (ها) صلة وتنبيه، وارتفع مابعدها على الصفة على اللفظ، لأن بناء أى شبيه بالإعراب فلذلك

---

(١) آل عمران ٦٦.

(٢) البحر ٢: ٤٨٦.

(٣) المائدة ٢٤.

(٤) البحر ٣ : ٤٥٦.

جاز مراعاة اللفظ، ولا يجوز نصبه على الموضع خلافاً لأبى عثمان، وزعم الأخفش فى أحد قوليه أن (أيا) فى النداء موصولة ، وأن المرفوع بعدها خبر مبتدأ محذوف[١] ويمثل لهذا النوع بقوله تعالى:

«يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم»[٢] ونحو قوله تعالى: «يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك»[٣] وقوله تعالى: «يا أيها النبى اتق الله ولاتطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً»[٤] أى دم على تقواك، ونحو قوله تعالى: «يا أيها الذين كفروا»[٥] أى فى (أيها) منادى مفرد مبنى على الضم، وليست الضمة فيه حركة إعراب خلافاً للكسائى والرياشى، وهى وصلة لنداء مافيه الألف واللام.

الموضع الثالث: وقد تقدم وهو مع ضمير الرفع المنفصل إذا كان مبتدأ مخبرا عنه باسم الإشارة نحو قوله تعالى: «ها أنتم أولاء» إلخ.

الموضع الرابع: أنها تقع فى باب القسم فى اسم الله خاصة إذا حذف حرف القسم معه كقولهم: ها الله لأفعلن، ولاتلزم بل تطرد فى الاسم هى أو الهمزة الممدودة، أو المقصورة فتقول: إن شئت ها الله، وإن شئت الله وأما الواقعة متفرقة فلا موضع لها يختص بها بل إذا أريد التنبيه كقوله تعالى: «ها أنتم أولاء» و «هأنتم هؤلاء» على قراءة من مد ، ومن

---

(١) دراسات لأسلوب القرآن ١٠ : ٢٤٢ ، البحر ١ : ٩٤.

(٢) الانفطار ٦.

(٣) التحريم ١.

(٤) الأحزاب ١.

(٥) التحريم ٧.

قصر فله وجه ، وتقول ها أنا أفعل، وقد تستعمل مفردة فيقال: ها بمعنى تنبه[١].

٤- هكـــذا

لفظ مركب من (ها) التنبيهية، وكاف التشبيه وذا الإشارية نحو قوله تعالى: «أهكذا عرشك»[٢].

فصل بحرف الجر بين حرف التنبيه واسم الإشارة والأصل: أهكذا أى أمثل هذا عرشك ولايجوز ذلك فى غير الكاف لو قلت أبهذا مررت، ولهذا فعلت لم يجز أن تفصل بحرف الجر بين ها وذا فتقول: أها بذا مررت، وأها لذا فعلت[٣] قال ابن هشام[٤] (كذا) ترد على أوجه منها.

أن تكون كلمتين باقيتين على أصلهما، وهما كاف التشبيه، وذا الإشارية كقولك رأيت زيداً فاضلاً ، ورأيت عمراً كذا، وقوله:

وأسلمنى الزمان كـذا فـلا طـرب ولا أنـس

وتدخل عليها ها التنبيه كقوله تعالى: «أهكذا عرشك»[٥].

٥- الهمزة

تأتى همزة الاستفهام لمعان ذكرها صاحب الجنى الدانى[٦] منهـــا:

---

(١) رصف المبانى ٤٠٦.

(٢) النمل ٤٢.

(٣) الدرر المصون ٥ : ٣١٥.

(٤) المغنى ١٧٨.

(٥) فى المغنى شاهد ٣١٠ بلاتسية.

(٦) ص ٩٨.

التنبيه نحو قوله تعالى: «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير»(١).

قال سيبويه(٢) وسألته (يعنى الخليل) عن «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة» فقال هذا واجب، وهو تنبيه، كأنك قلت: أتسمع أن الله أنزل من السماء ماء فكان كذا وكذا، وإنما خالف الواجب النفى ، لأنك تنقض النفى إذا نصبت وتغير المعنى ، يعنى أنك تنفى الحديث وتوجب الإتيان تقول: ما أتيتنى قط فتحدثنى إلا بالشر ، فقد نقضت نفى الإتيان ، وزعمت أنه قد كان، وتقول ما تأتينى فتحدثنى ، وإذا أردت معنى فكيف تحدثنى ، فأنت لاتنفى الحديث ولكنك زعمت أن منه الحديث ، وإنما يحول بينك، وبينه ترك الإتيان، وقد ذكر الألوسى ما قاله سيبويه(٣).

٥٠٦ وى

(وى) حرف تنبويه ومعناها التنبيه على الزجر والحض، وهى تقال للرجوع عن المكروه، والمحذور، وذلك إذا وجد رجل يسب أحداً يوقعه فى مكروه، أو يتلفه، أو يأخذ ماله ، أو يعرض به لشئ من ذلك فيقال لذلك الرجل (و ى) ومعناها تنبه وازدجر عن فعلك، ويجوز أن توصل بها كاف الخطاب (ويك) وقيل فى قوله تعالى: «وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده

---

(١) الحج ٦٣.

(٢) الكتاب ٣ : ٤٠ .

(٣) روح المعانى م٦ جـ١٧ : ١٩٢.

ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لايفلح الكافرون»[١].

إنها (وى) دخلت لمعنى التنبيه[٢]، وكأن : حرف تشبيه عامله على حكم كأن المذكورة فى بابها، وقيل إنها وى المذكورة، والكاف للخطاب، وأن معمولة لفعل مقدر كأنه فى التقدير اعلم أن الله، واعلم أنه، وقيل إن الأصل ويلك، فحذفت اللام، وبقى ويك وهذا دعوى فى الحذف لا حجة عليها، إلا أن صلاح المعنى له، وليس كل مايصلح النطق به يحكم، وإنما الصحيح أن تكون (و ى) حرف تنبيه على القولين الأولين، لأنه الأليق بالمعنى، والظاهر فى اللفظ وقال السمين[٣] فيه مذاهب منها أى (وى) كلمة برأسها وهى اسم فعل معناها أعجبه أى أنا والكاف للتعليل و (أن) وما فى حيزها مجرورة بها أى أعجب لأنه لايفلح الكافرون، **الثانى:** كأن هنا للتشبيه إلا أنه ذهب فيها معناه وصارت للخبر.

الثالث: أن ويك كلمة برزسها ، والكاف حرف خطاب وأن معمولة لمحذوف أى أعلم أنه لايفلح قاله الأخفش.

الرابع: أن أصلها ويلك فحذف.

الخامس: أن ويكأن كلها كلمة مستقلة بسيطة ومعناها ألم تر، وربما نقل ذلك عن ابن عباس، ونقل الكسائى الفراء أنها بمعنى أما ترى إلى صنع الله وحكى ابن قتيبة أنها بمعنى رحمة لك فى لغة حمير.

---

(١) القصص ٨٢.

(٢) رصف المبانى ٤٤٢ ، الجنى الدانى ٣٤٨.

(٣) الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون ٥ : ٣٥٤ بتصرف.

٧- حروف النـــداء

قال عنها المبرد [١]: الحروف التى تنبه بها المدعو وهى: يا، أيا، هيا أى، ألف الاستفهام وقال عنها سيبويه [٢] باب الحروف التى ينبه بها المدعو فيتنبه بخمسة أشياء بيا، وأيا، وهيا، وأى، وبالألف.

أ. ألف التنبيه

فأما (ألف) التنبيه فإنها تقوم مقام [٣] حرف النداء كقولك : يازيد ثم تقول: أزيد، فهو بدل من حرف النداء وهو تنبيه، قال أبو كبير الهذلى [٤].

أزهير هل من شبيه من معدل؟ أم سبيل إلي الشباب الأول

وينادى بها القريب نحو قوله [٥].

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل

وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

والباقى من الحروف للبعيد [٦] بعداً حقيقياً، أو بعداً مجازياً ومـــن

---

(١) المقتضب ٣ : ٢٣٣.

(٢) الكتاب ٢ : ٢٢٩.

(٣) الجمل فى النحو للخليل الفراهيدى تحقيق قباوة ٢٤٨.

(٤) زهير ابنه أبى كبير بريديا زهيرة فرخم بحذف التاء ، وترك الراء مفتوحة على لغة من ينتظر وهو فى ديوان الهذليين ، ٢: ٨٩ ، الخزانة ٤ : ١٦٥.

(٥) البيت لأمرئ القيس وهو فى الديوان ١٢ ، أمالى ابن الشجرى ٢: ٨٤ مغنى اللبيب وشرح شواهده ١٣ ، شرح شواهد الألفية للعينى٤ : ٢٨٩ ، الهمع١: ١٧٢.

(٦) المقتضب ٤: ٢٣٣.

البعد المجازى علو المكانة، وانخفاضها، والنوم والسهو والغفلة، وجعل بعضهم من النداء بالهمزة قراءة الحرميين:

«أمن هو قانت»[١] بتخفيف الميم، ويحتمل أن تكون همزة الاستفهام دخلت على (من)، ومن: مبتدأ، وخبره محذوف تقديره أمن هو قانت كغيره حذف لدلالة الكلام عليه والله أعلم[٢].

ب ، يـــا

أكثر هذه الحروف استعمالاً (يا)، وتتعين فى اسم الله تعالى وفى باب الاستغاثة نحو: يا لله للمسلمين، وتشارك وافى باب الندبة عند أمن اللبس كقول جرير[٣].

حملت أمراً عظيماً فاصطبرت له ... وقمت فيه بأمر الله يا عمرا

ويكون حرف النداء (يا) مذكوراً نحو قوله[٤]:

ألا يا عباد الله قبلى متيم ... بأحسن من صلى وأقبحهم بعلا

---

(١) الزمر (٥).

(٢) الجنى الدانى ١٠٠ ، ١٠١.

(٣) البيت لجرير يرثى عمر بن عبد العزيز وهو من الطويل مغنى اللبيب ٣٧٢، العينى ٤: ٢٢٩ ، ٢٣٧ ، التصريح على التوضيح ٢: ١٦٤ ، الهمع ١: ١٨٠ ، الأشمونى ٣: ١٣٤ ، ١٦٧ ، ١٦٩ الديوان ٣٠٤ ، أوضح المسالك ٤٣٠، الشذور ٣٠٨.

(٤) للأخطل وهو من الطويل وهو فى الكامل ١: ٢٨٢ ، الجمل للزجاجى ١٦٠، الهمع ٢: ٧٠ ، مجمع الأمثال للميدانى ١ : ٢٧٣.

ويحذف إذا علم كقوله تعالى: «يوسف أعرض عن هذا»[١] أى يايوسف، وقوله تعالى: «سنفرغ لكم أيها الثقلان»[٢] ويمتنع حذف حرف النداء فى المندوب، والمستغاث والمنادى البعيد لأن المقصود مد الصوت، والحذف ينافى ذلك والمضمر المنصوب ، أو المرفوع إذا جاء منادى كقول الأحوص[٣].

يا أبجر بن أبجر يا أنتا أنت الذى طلقت عام جعتا

قال صاحب الحاشية على الأشمونى[٤] : وجعل بعضهم (يا) فيه للتنبيه، وأنت الأولى مبتدأ، وأنت الثانية تأكيداً، والموصول خبراً واسم الله تعالى لايجوز حذف النداء معه إلا إذا عوض عنه بالميم المشددة فى آخر كقولنا اللهم اغفر لنا ويقل الحذف مع اسم الإشارة نحو قوله تعالى :« ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم»[٥].

أى يا هؤلاء وكقول ذى الرمة[٦].

---

(١) سورة يوسف الآية (٢٩).

(٢) سورة الرحمن الآية (٣١).

(٣) وهو فى التصريح على التوضيح ٢ : ١٦٤ ، الهمع ١: ١٧٤ حاشية الصبان على الأشمونى ٣ : ١٣٥ الخزانة ١: ٢٨٩ ، العينى ٤ : ٢٠٢.

(٤) حاشية الصبان ٣ : ١٣٥ ، ١٣٦.

(٥) سورة البقرة الآية (٨٥).

(٦) من الطويل والشاهد فيه حرف النداء ، وأصله يا هذا وأحتجت به الكوفية على جواز ذلك ، ولوعة: مبتدأ ، ومثلك خبره وغرام: عطف عليه، وهملت أى صبت وكذلك همرت وهو فى العينى ٤ : ١٣٥ ، التصريح ٢ : ١٦٥، المغنى ١٤١ ، الهمع ١: ١٧٤ ، الأشمونى ، الديوان ٥٦٣.

إذا هملت عينى لها قال صاحبى بمثلك هذا لوعة وغـــرام

أى يا هذا كما يقل الحذف مع اسم الجنس نحو قولهم:

أصبح ليل أى ياليل، وافتد مخنوق أى يا مخنوق، وأطرق كرا إن النعام فى القرى أى يا كروان وينادى (بيا) من لا يجيب، لأنه فى حكم البعيد نحو قوله[1]:

يا دار مية بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد

وينادى بها القائم، لأنه لايسمع إلا بعد مد طول الصوت، ومن نداء الوسط «ياقوم لا أسألكم عليه أجرا»[2] ومن نداء القريب قوله[3]:

باتت لتحزننا عفـــاره يا جارتا ما أنت جـــاره

وقولك يا هذا الرجل، يا أيها الرجل، وأما إذا لم يكن بعدها المنادى فتكون للتنبيه نحو قوله تعالى: «ألا يا اسجدوا لله الذى يخرج الخبء»[4] وهى قراءة الزهرى والكسائى[5] على قراءة من أفرد (يا)، وجعل اسجدوا أمراً ومنه قوله تعالى:

«يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً»[6] ومنه قوله[7]

---

(١) البيت للنابغة الديوان ٢ ، العينى ٤: ٤٩٦ ، الهمع ٢ : ٢٢٣.

(٢) سورة هود الآية (٥١).

(٣) البيت للأعشى الديوان ٢٠ ، المفصل ٣ : ٢٢ ، اللسان (جور) الشذور ٢٥٧.

(٤) سورة النمل الآية (٢٥).

(٥) النشر ٢ : ٣٢٣ ، القرطبى ٢ : ٤٩٠ .

(٦) سورة النساء الآية (٧٣)..

(٧) نسب فى الحماسة إلى العديل بن الفرخ ١: ٣٠٤ ، وفيه ذا الثنايا عوضاً عن ذات اللثات، وهو فى البحر ٧ : ٦٨ ، والدماليج جمع دملوج، وهو سوار اليد والعقد القلادة.

ألا ياسلمى ذات الدماليج والعقد

وذات اللثات الغر والفاحم الجعد

وقول الآخر[١]:

ألا يا أسلمى ثم اسلمى ثمت اسلمى

ثلاث تحيات وإن لـــم تكلـم

ومنه قوله[٢]:

يا لعنة الله والأقوام كلهم والصالحين على سمعان من جار

وضعف المالقى[٣] كون المنادى محذوفاً لوجهين:

أحدهما: أن (يا) نابت مناب الفعل لكونه لازماً للحذف بعدها ، لأن المراد أدعو، وأنادى، فلو حذف المنادى معها لحذفت الجملة بأسرها وذلك إخلال.

الوجه الثانى: أن المنادى معتمد المقصد، فإذا حذف تناقض المراد، فلزم على هذا أن تكون (يا) لمجرد التنبيه من غير نداء ذلك هو الرأى المشهور، ويجوز على وجه آخر أن يكون المنادى محذوفاً ، ويقدر بالنظر للمعنى وخلاصة القول فى هذا أن (يا) تكون لمجرد التنبيه لا للنـــداء إذا

---

(١) البيت لحميد بن ثور وهو فى ديوانه ١٣٣ برواية بلا فاسلمى،
والحماسة ٢ : ١٤٤.

(٢) البيت من الخمسين يدعو علي سمعان جاره أن تناله لعنة الله والناس أجمعين لأنه لم يرع حق الجار ، والشاهد فيه حذف المدعو لدلالة حرف النداء عليه أى يا هؤلاء لعنة الله، ابن الشجرى ١: ٣٢٥ ، ٢: ١٥٤، ابن يعيش ٢ : ٢٤، ٨/٤٠ : ١٢٠، العينى ٤ : ٢٦١ ، الهمع ١: ٧٤ ، ٢ : ٧٠.

(٣) رصف المبانى ٤٥٣.

وليها أحد خمسة أشياء الأمر، والدعاء ، وليت ، وقد تقدم الحديث عن ذلك ورب نحو قوله[١].

يارب سار بات ماتوسدا إلا ذراع العيس أو كف اليـــدا

وحبذا كقول الشاعر[٢].

يا حبذا جبل الريان من جبل وحبذا ساكن الريان من كانـــا

فـيـا فى هذه المواضع حرف تنبيـه لاحرف نداء هذا مـذهب قـوم من النحويين قال بعضهم وهو الصحيح.

وذهب ابن مالك فى التسهيل[٣] إلى تفصيل فى ذلك وهو أن (يا) إن وليها أمر أو دعاء، فهى حرف نداء والمنادى محذوف، وإن وليها ليت أو رب، أو حبذا فهى لمجرد التنبيه.

جـ- أيـــا

(أيا) معناها التنبيه، وينادى بها كما ينادى بيا إلا أنها تكون لازمة لنداء البعيد مسافة أو حكماً[٤] كالقائم والغافل ولذلك كانت على ثلاثة أحرف أخرها ألف، تحتمل المد ماشئت، لأن مد الصوت بهـا يتمكن، ولايجوز حذفها وإبقاء المنادى، وإذا وجد منادى دون حرف نداء حكم بالحذف ليا، لأنها أم الباب فتقول:

---

(١) مجهول القائل شواهد التوضيخ ٩.

(٢) من البسيط وهو فى جمل الزجاجى ١٢٢ ، شرح المفصل لابن يعيش ٧ : ١٤٠، همع الهوامع ٢ : ٨٨ ، الديوان ٥٩٦.

(٣) ١٧٩.

(٤) رصف المبانى ١٣٦.

أيا زيد، أبا عبد الله قال الشاعر(١):

أيا ظبية الوعساء بين جلاجل وبين النقا أنت أم أم سالم

وقول الآخر(٢):

أيا راكباً إما عرضت فبلغن ندامای من نجران ألا تلاقيا

وقال تعالى: «يا أيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك»(٣)

وقوله: «يا أيتها النفس المطمئنة»(٤).

قال سيبويه(٥) واما الألف والهاء اللتان لحقتا (أى) توكيداً، فكأنك كررت (يا) مرتين إذا قلت: يا أيها، وصار الاسم بينهما كما صار هو بين ها، وذا، وإذا قلت ها هو ذا، وقال الشاعر(٦).

من أجلك يا التى تيمت قلبى وأنت بخيلة بالود عنى

---

(١) البيت لدى الرمة، وهو فى الديوان ٢٢، والكتاب ٢: ١٩٥، الخصائص ٢: ٤٥٨، أمالى القالى ٢: ٦١، أمالى الشجرى ١: ٣٢١، الإنصاف ٤٨٢، الوعساء: الرملة، وجلاجل: جبل بالدهناء، النقا الكثيب من الرمل عنى شدة تقارب الشبه بينهما وبين الظبية، فاستفهم استفهام شاك مبالغة فى التشبيه.

(٢) البيت لعبد يغوث الحارثى قالها حين جهز للقتل بعد أن أثرته تميم فى يوم الكلاب الثانى، ورواية الكاتب فيها راكباً، عرضت: أتيت العروض وهى مكة والمدينة وما حولها وقبل واليمن أيضا وهو فى الكتاب ٢: ٢٠٠، الخصائص ٢: ٤٤٨، العينى ٣: ٤٢.

(٣) المائدة الآية ٦٧.

(٤) الفجر الآية ٢٧.

(٥) الكتاب ٢: ١٩٧.

(٦) البيت من الخمسين، وانظر الإنصاف ٢٠٩، وابن يعيش ٢: ٨، الهمع ١: ١٧٤، الخزانة ١: ٣٥٨.

كأنه قال يا أيتها التى تيمت قلبى، فحذف وأقام النعت مقام المنعوت قال عبد القاهر الجرجانى (١).

لما قصدوا نداء مافيه الألف واللام، وكرهوا الجمع بين يا والألف واللام نحو : يا الرجل أتوا بأى، وجعلوه وصلة إلى نداء مافيه نداء الألف واللام من حيث جعلوا (أى) منادى مفرد كقولك: يا أى كما تقول يا عمرو وجعلوا الرجل صفة له ، فسرى فيه معنى النداء حتى كأنه يا رجل ، فجعلوا (ها) فصلاً بينه ، وبين الرجل كأنهم جهلوه تنبيهاً على أن المقصود بالنداء هو الرجل.

هـ٠ آ

حرف من حروف النداء حكاه الأخفش والكوفيون (٢) وزعم ابن عصفور أنه للقريب كالهمزة، وذكر غيره أنه للبعيد وهو الصحيح، لأن سيبويه ذكر رواية عن العرب أن الهمزة للقريب وماسواها للبعيد (٣).

هـ٠ وا

(وا) حرف للنداء مختص بباب الندبة وهى التفجع على الميت، وذكره بأشهر أسمائه ليكون ذلك عذراً فى التفجع عليه والتفجع علي من ناله مكروه.

و٠ أى - المفتوحة الخفيفة

من مواضعها...

أن تكون تنبيهاً ونداء مثل (يا) إلا أنها تختص بالقريب ، وهى فى النداء أبعد من الهمزة ، فهى فى المنزلة الوسطى من الهمزة، وأيا ، ويجوز

---

(١) المقتصد فى شرح الإيضاح ٢ : ٧٧٧.

(٢) همع الهوامع ١: ١٧٢.

(٣) الجنى الدانى ٢٤٩.

مدها إذا بعدت المسافة، فيكون المد فيها دليلاً على بعد المسافة، وأن السامع بحيث لايسمع النداء إلا مع المد فتقول: أى زيد، وآ أى زيد ، إذا مددت قال الشاعر (١):

ألم تسمعى أى عبد فى رونق الضحى
بكاء حمامات لهن هدير

ولايجوز حذفها، وإبقاء المنادي، وإذا وجدنا منادى دونها قررنا الحذف (يا) وحدها، لأنها أم الباب فى النداء، والتصرف إنما ينبغى أن يكون لها خاصة.

زه هيا

حرف تنبيه وتكون للنداء نحو قولك هيا زيد ، وهى للبعيد مسافة أو حكماً كالنائم فهى مثل (أيا) ، واختلف فيه هل الهاء فيها بدل من همزة أما وهو قول الأكثرين (٢) ، أو هو حرف قائم بنفسه، والأول أكثر لكثرة بدل الهاء من الهمزة ، كما قالوا: أرحت، وهرحت، وارقت، وأنشد الأصمعى:

وانصرفت وهى حصان مغضبة ورفعت من صوتها هيا أبة
كل فتاة بأبيها معجبة..

ولايتصرف فيها بالحذف ، وإبقاء المنادى لقلة النداء بخلاف (يا) فإنها أم الباب (٣).

والله أعلم ،،

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ،،

---

(١) البيت لكثير عزة وهو فى الديوان ١: ٢٣١ ، والمغنى ٧٦، همع الهوامع ١٧٢.
(٢) نسبه صاحب الجنيب إلى ابن السكيت، وابن الخشاب ٢٠٤.
(٣) رصف المبانى ٤٠٩.